الفصل الأول

الأســـــطورة

« اذا أحسسنا بأننا لم نعد بعد قادرين على التعبير عن معنى الحيـــاة ، فلا أقـــل من أن نخبر عن ظواهرهـــا » .

مـــارك ثمـــورر

كثيرا ما تتردد على الألسن كلمتا خرافة وأسطورة بوصفهما كلمتين مترادفتين . فالأسطورى والخرافى كلمتان متساويتان تماما فى المعنى عند كثير من الناس ، وذلك لأن كليهما يصور الشىء البعيد عن المنطق والمعقول . ولكننا عندما ندرس الأنواع الأدبية الشعبية ، يتحتم علينا أن نفرق تفرقة تامة بين الاسطورة والخرافة ، اذ أنهما نوعان أدبيان يختلفان تماما من حيث الدافع والشكل .

حقا أن هناك صلة بين الحكاية الخرافية والأسطورة ، تتمثل فى كونهما يحققان فى الغالب هدفا واحدا وهو اعادة النظام للحياة . ومع ذلك فان الأسطورة تنتمى الى سلوك روحى آخر غير الذى تنتمى اليه الحكاية الخرافية .

ونود الآن أن نوضح هذا السلوك الروحى الذى تنتمى اليه الأسطورة بحيث أصبحت تتميز عن الأنواع الادبية الشعبية الاخرى . على أنه ينبغى علينا — قبل أن نوضح هذا — أن نتساءل عن ماهية الأسطورة فى حد ذاتها . ويمكننا أن نقول بايجاز أن الأسطورة محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة ، أو هى تفسير له . انها نتاج وليد الخيال . ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد . وعلى هذا فان الأسطورة الكونية — شأنها شأن الفلسفة — تتكون فى أولى مراحلها عن طريق التأمل فى ظواهر الكون المتعددة . والتأمل ينجم عنه التعجب ، كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل .

فاذا تساءل الانسان طلب الاجابة فى اصرار عن سؤاله . حتى اذا وجد الجواب عن سؤاله ، قرت نفسه ، لأن الاجابة حينئذ تكون حاسمة بالنسبة اليه ، هو يرتبط بها كل الارتباط . فاذا تمثل

الكون للانسان بهـذه الوسـيلة عن طريق السؤال والجواب ، فانه يتكون بذلك شكل نسميه الأسطورة الكونية .

ويوازى الأسطورة من حيث هى الكلمة التى عن طريقها يصبح الكون معروفا لـدى الانسان . النبوءة لدى الاغريق . وتصدر هـذه النبوءة عن بعض الأمكنة مثـل دلفى حيث كان الاغريقى يـذهب ليلتمس الاجابة عن سؤال يختص بمصير شىء ما . ومن شأن هـذه الاجابة أن تقدم للانسان القول الصدق عن مصير شىء يشـغله . وعلى ذلك فالأسطورة الكونيـة والنبوءة تنتميان الى مجال واحـد من الاهتمام الروحى الشعبى . يدفع الانسان الى طلب المعرفة والـى الاجابة الفاصلة عمـا يجهله . والفرق بين النبوءة والأسطورة هـو أن النبوءة تختص بحـدث من أحـداث الحيـاة اليوميه . فى حـين أن الأسطورة تختص بالظواهر الكونيـة . ولعل هـذا يفسر لنـا المعنى الأصلى لكلمة Myth أو Mythos عنـد الاغريق القدماء . اذا كانت تعنى الكلمة المنطوقة . ثم تحـدد اسـتعمالها بعد ذلـك فأصبحت تعنى الحكاية التى تختص بالآلهة وأفعالهم ومغامراتهم(١) . ولم يكن الانسان البدائى يتساءل عن وجود الآلهـة فى حـد ذاته . ولكنـه تسـاءل عنهـا بوصفها المصدر الأول للظواهر الكونية والمنظم لها . فهو حينما تساءل عن مصدر المطر والبرق والرعد والنبات الى غير ذلك . كان لابد له من أن يربط وجود هـذه الأشياء بالقـوى الغيبية التى آمن بسيطرتها عليها . وقد رأى الانسـان البـدائى لهـذا السبب أن يكون فى صـلح دائـم مع الآلهـة . وأن يكون على صلة وثيقة بهـا . ليكسب ودها عن طريق العبـادة والتبجيـل والتضحية . ومـن هنـا نشـأت الطقـوس الدينيـة التى كـان الانسان يحييها فى مواسم معينـة ، قبـل استقبال موسم الحصـاد أو نزول المطر . أو تجنبـا لوقوع شر ، الى غير ذلك . والأسـطورة

---

(١) Lewis Spense : The outlines of Mythology, p. 13 (New York 1961).

بمعناها المحـدد وصف لهـذه الطقوس أو هى الحكاية التى ترتبـط بهـا (١) •

وهكذا نرى أن الأسـطورة وسيلة حـاول الانسان عن طريقها ان يضفى على تجربته طابعـا فكريـا ، وأن يخـلع على حقـائـق الحياة العادية معنى فلسفيا • وبدون هذه الصورة الأسـطوريـة تكون التجربة مهوشة ، كما أنها تقتصر على كونهـا مجـرد ظاهرة • ولا تكـون للاسطورة قيمة الا اذا كانت مكتملة ، كما أنه لا تكـون لأجزائها أهمية الا بمقدار ما تفصح عن الفكرة الرئيسية •

ويمكننا أن نتوسع فى شرح هـذا فنقول ، ان الأسطورة عملية اخراج لدوافع داخلية فى شكل موضوعى • والغرض من ذلك حمايـة الانسان من دوافع الخوف والقلق الداخلى • فالانسان مثلا يخشى الظـلام ويحب ضـوء الشمس الساطع ، ولذلك فهو يقدس الشمس ويعدها آلهـة ، فى حين أنه يعـد الظلام كائنـا شريرا • ولهـذا يتحتم على الشمس أن تتصارع مع الكائن الشرير حتى تقضى عليـه حماية للانسان • ومن هنـا كانت رحلة الشمس الدائبـة ، فهـى تطلع حينما تنتصر على الكائن الشرير ، وهى تغيب حينما يظهر لها مرة أخرى لكى يصارعها • وتشبه عمليـة الاخـراج هذه ، العملية التى تتم فى الحـلم فيما يرى علمـاء النفس • فالحلم يخرج ما فى النفس من دوافع الخوف والرغبة فى شكل صورة ورموز فاذا بالمشـكلات الداخلية المعقدة تتحول من تلقاء نفسها الى موضوع حكاية (٢) •

وفى هذا تتفق الأسـطورة كذلك مع القصـة الحديثة من حيث انهـا استجابـة للنوازع الداخلية التى يعيشـها الانسـان نتيجـة احساسـه بالخوف ورغبتـه فى التعرف على الحقيقـة المؤكدة • ولكن بينما نجـد الانسان البدائى قـد عثر على الشكل القصصى الـذى يرتاح اليـه نفسـه وتهدأ ، نجد القصـاص الحديث يخوض تجربة

---

(١) Ibid, p. 15.

(٢) Otto Bank : The Myth of the Brith of the Hero, p. 8-9. (New York 1959).

غير واضحة المعالم ، ومن ثم فان الشكل الذى يصور تجربته يتمثل فى اطار رحلة فوضوية فى عالمه الداخلى • أن العملين يتفقان فى كونهما كشفا عن النوازع الداخلية ، ولكن الانسان البدائى يشعر بأنه يقوم برحلة محددة النتيجة ، فاذا بالتعبير عن هذه الرحلة ينمو من تلقاء نفسه بعيدا عن الذات ، ولا يتمثل فيه سوى هذا التشابك القوى بين عالمه والعالم الآخر •

ولا يعنى هذا أن دوافع الخوف والرغبة ليست هى الاساس والمحرك الأول ، فنحن حينما نقرب قوقعة الى اذننا نسمع صوت هامسا لبحر ناء ، ومع أن هذا الصوت ينجم عن رجفة اليد ونبضاتها حينما ترن داخل القوقعة ، فان أحدا لا يشك فى أن هذا الصوت ليس سوى صوت هامس لبحر ناء • وكذلك الحال مع الأسطورة ، فان انغماسها مع الحقائق الخارجية يكون الى درجه تختفى معها الخوالج الداخلية •

وقد تتطور الأسطورة تحت تأثير صنعة القاص ، وعند ذاك ينسى أصلها الدينى ، وتتخذ شكل حكاية خرافية أو شعبية ، ويمكننا أن نستدل على ذلك بحكاية سندريلا الشهيرة ، فقد اهتدى الباحثون عند مقارنة نصوص هذه الحكاية فى البلدان المختلفة الى المغزى الأصلى لهذه الحكاية ، أى الى مغزاها الدينى •

فسندريلا فى الأصل هى ملكة الربيع أو الهة الربيع التى أهملت نتيجة قسوة الشتاء ، فعاشت فترة فى وحدتها تعانى مرارة الاهمال ، حتى جاءتها أحدى الهات الطبيعة ، ويرمز لها فى الحكاية بالجنيه ، فأمدتها بكل ما يعيد اليها مظهرها الجميل حتى تحضر حفل الأمير ، أى حفل احياء الربيع • وليس الامير سوى الملك المقدس أو الاله فى الأسطورة القديمة • أما الفترات القصيرة التى كانت تظهر فيها سندريلا فى مظهرها البهيج فى حفل الامير ثم ما تلبث أن تختفى ، فانما تشير الى ذكرى فصل الربيع التى تعيش فى النفوس فتشيع فيها البهجة لحظات قصرة • وما تلبث أن تتحقق

هـذه الذكرى السعيدة بحلول الربيع مرة أخرى ، أى حينما يجد الملك المقدس فى البحث عن سندريلا ويتم زواجه بها (١) .

فالحكاية بهذا المغزى ترتبط فى أصلها بظواهر الطبيعة التى استرعت نظر الانسان . ولما كانت هذه الظواهر ترتبط بقوى علوية أو شبه علوية . فقد ارتبط ظهور الربيع بالآله أو الملك المقدس . ولا بد أن الشعوب البدائية كانت تحيى هذه الذكرى فى طقوسها بما يتفق مع الخطوط الرئيسية لهذه الحكاية، ومن ثم أصبحت أسطورة تناقلتها الألسن حتى تطورت فأصبحت حكاية خرافية لا تحمل للشعب مغزى دينيا .

واذا كنا قد حددنا بذلك شكل الأسطورة ، فانه يمكننا بعد ذلك أن نتساءل عن الأسطورة عند العرب ؛ فهل عرف العرب الاسطورة فى اطار هذا المعنى ؟ اننا حينما نقلب صفحات بعض المصادر العربية نجد أخبارا كثيرة عن معتقدات العرب فى الجاهلية وعن تصوراتهم ودياناتهم . ولكن هذه المصادر لا تتجاوز هذه الأخبار الى ذكر الاسطورة العربية الكاملة . فاذا تصفحنا بعد ذلك الكتب التى تناولت موضوع الاساطير العربية بالبحث ، فاننا نجدها اما ساردة لهذه الاخبار مرة أخرى . معتمدة بطبيعة الحال على هذه المصادر العربية ؛ أو نجدها تحاول وضع هذه الأخبار فى اطار الديانات والمعتقدات التى عرفتها الشعوب البدائية بصفة عامة . كأن ترجعها الى الديانة الروحانية أو الطوطمية أو الفتيشية الى غير ذلك . فهل معنى هذا أن العرب لم يعرفوا الأسطورة الكاملة التى تجمع بين بعض الظواهر الكونية فى اطار قصصى مكتمل ؟ وبعبارة أخرى ألم تسترع الظواهر الكونية نظر العربى الجاهلى حتى تساءل عنها ، ومن ثم أجاب عن سؤاله بجواب مقنع له شاف لحيرته ؟ .

أننا اذا حاولنا أن نستنبط هذا من خلال تلك الأخبار الكثيرة التى رويت فى المصادر العربية ، فاننا نخلص فى النهاية الى أن العرب

---

(١) Lewis Spence : op. cit., p. 50151.

الجاهليين شغلهم الكون بظواهره المتعددة الى درجة أننا نتعجب حقا لعدم وجود نماذج أسطورية كاملة . بخاصة وان مقدرة العربى على تكوين القصه كانت متوافرة للغاية ، كما تدلنا على ذلك الانواع الأدبية الشعبية الأخرى التى ابتدعها خيال العربى فى وفره . فاذا حاولنا بعد ذلك أن نعلل غياب الاسطورة العربية . فاننا نرجع عنه هذا الى سببين، أولهما أن العصر الجاهلى المتأخر الذى نقلت عنه هذه الأخبار لا يمثل العصر الأسطورى الذى يمكن أن تتكون فيه الأسطورة . ذلك أن هذا العصر لا يمثل عصر البراءة والسذاجة الذى يمكن أن يقتنع فيه الانسان بحكاية أسطورية تربط بينه وبين الكون ربطا تاما . وانما يشيع فى هذا العصر . على عكس ذلك ، جو من الشك الرهيب . الى حد أن أخذ العربى يفكر تفكيرا وجوديا بعيدا عن العالم السماوى . اليس العربى هو القائل :

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو

اما السبب الثانى فهو يترتب على افتراضا وجود أساطير عربية قديمة عاشت بين الناس حتى قبل مجيء الاسلام . ولكن هذه الاساطير مسخت أو حرفت أو اندثرت بعد مجيء الاسلام . ولعل الخبر التالى يؤكد لنا صحة هذا الفرض . يروى الألوسى فى كتابه بلوغ الأرب :

« ان العزى كانت شيطانة بعث الرسول اليها خالد بن الوليد لما افتتح مكه . وكانت ببطن نخلة فاتاها واذا بحبشية ناشرة شعرها . واضعه يدها على عاتقها تصرف بأنيابها . فضربها خالد ففلق رأسها ثم أتى النبى فاخبره . فقال : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب . أما انها لن تعبد بعد اليوم (١) » .

لقد كانت العزى أحد الأصنام التى عبدها العرب فى الجاهلية ولابد أن وجودها كان يرتبط بحوادث كونية . ونحن نفترض كذلك أن العربى كان يحيى لها طقوسا معينة نشأت عنها فيما بعد أسطورة كاملة . حتى اذا ما اعتنق العربى الاسلام . خلع على العزى تصورا

---

(١) الالوسى : بلوغ الارب (ج ١ ص ٢٢٠) .

خرافيا يرتبط بالعقيدة الجديدة ، فاذا بالعزى شيطانة شريرة ناقشه شعرها بعد ان كانت الهة تعبد وتقدس •

على أنه اذا كان عصر ما قبل الاسلام وعصر الاسلام نفسه لم يفسحا مجالا للأسطورة العربية الاصلية لكى تعيش وتزدهر ، فانهما لم يتمكنا من القضاء على التفكير الأسطورى عند العرب قضاء تامـــا • فالاخبار التى وصلتنا عن العرب تحمل بين ثناياها روايات تقترب من الأسطورة الى حد كبير ، أو هى تعد تفرعا عنها ، كما سبق أن أشرنا • ومن ذلك ما روى عن اعتقادهم فى النبوءة التى من شأنها أن تحدد لها مصير شىء مجهول • فقد روى أنهم « كانوا اذا عم عليهم أمر الغائب ولم يعرفوا له خبرا جاءوا الى بئر عادية (أى مظلمة بعيدة القعر ، وبالتشديد منسوبة الى عاد ، كناية عن قدمها) • أو جاءوا الى حفر قـــديم ونادوا فيه : يافـــلان أو يا أبا فلان ثلاث مرات ، ويزعمون أنه اذا كان ميتا لم يسمعوا صوتا ، أما ان كان حيا سمعوا صوتا وربما وهما أو سمعوه عن الصدى » • وفى ذلك يقول الشاعر :

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوة
فما آن صوتى بالذى كنت داعيـــا
أظن أبا المغوار فى قعر مظلم
تجر عليه الذاريات السواقيا (١)

وشبيه بهذا كذلك عقيدتهم فى التعقية • والتعفية فيما يروى الالوسى هى سهم الاعتذار • « وأصل هذا أن يقتل الرجل رجلا من قبيلته فيطلب المقتول بدمه • فيجتمع جماعة من الرؤساء الى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونه العفو وقبول الدية • فان كان آباؤه ذوى قـــوة أبوا ذلك ، والا قالـــوا لهم بيننـــا وبين خالقنا علامة للأمـــر والنهى ، فيقول الاخرون :وما علامتكم ؟ فيقولون : أن نأخذ سهما فنرمى به نحو السماء ، فان رجع الينا مضرجا بالدماء فقد نهينا عن أخـــذ الدية ، وان رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها (١) » •

---

(١) بلوغ الارب ، ج ٣ ص ١٨)
(١) المرجع السابق (ج ٣ ص ٢)

ومن ذلك كذلك تقديسهم لنوع معين من الشجر أطلقوا عليه شجر النبوءات .

ولما أخذ العربى الجاهلى يفكر تفكيرا وجوديا بعيدا عن السماء . راح يستغل تفكيره الأسطورى فى رواية حكايات شبه أسطورية تتعلق ببعض ظواهر الحياة الواقعية . فقد حكى « أن لقمان خير بين بقاء سبع بعران سمر وبين سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر . فاستحقر الأباعر واختار النسور . فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ له : ياعم ما بقى من عمرك الا عمر هذا . فقال لقمان : هذا لبد . (ولبد بلسانهم الدهر ، وهو اسم نسر من نسور لقمان) . فلما انقضى رآه لقمان واقفا فناداه : انهض لبد . فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ، ومات لقمان معه (١) .

لقد شاء العربى أن يحكى فى هذه الحكاية الأسطورية عن فناء الانسان المحتم ، مهما استنسر هذا الانسان وتمسك بالحياة .

أنواع الأسطورة

لما كان من الصعب أن نقدم نماذج للأسطورة من الأدب العربى . حيث ان ماوصل الينا من هذا الأدب هو فى معظمة أجزاء من أساطير وليس أساطير مكتملة . وذلك للأسباب التى ذكرناها . فلا مفر اذن من تقديم هذه النماذج من الآداب الأخرى .

أولا : الأسطورة الكونية (الطقوسية) :

ان الرأى الذى ينكر كل الانكار أن يكون الدافع وراء نشأة الأساطير الأولى هو التأمل فى نظام الكون ومحاولة تفسيره . حيث أن الانسان القديم كان عاجزا ، من وجهة نظر أصحاب هذا الرأى ، عن النظرة التأملية فى نظام الكون ، وبالمثل ذاك الرأى الذى يقول ان

---

(١) نفس المرجع ١ ط ٣ ص ٢٦ .

ونحن نحيل القارىء على قراءة كتاب « تاريخ العرب » للاستاذ جواد على ، الجزء الخامس والجزء السادس . ففيها يتحدث باسهاب عن هذا الموضوع .

الأسطورة تمثل حالة تخلف لغوى حيث أن الانسان القديم كان عاجزا عن التعبير باللغة بالمجردة ومن ثم صاغ أفكاره فى شكل خيالات أسطورية، هذا الرأى وذلك لهما مـــا يعارضهما من شواهد أسطورية تقطع بأن الكون بنظامه الطبيعى قد شغل الانسان القديم ، وأن هذا الانسان عبر عن تصوره للظواهر الكونية من خلال اللغة التصويرية والتمثلية .

وعندما حكى الانسان لنفسه قصة الظواهر الكونية ، لم يكن يود أن يقول أكثر مما قال فى الأسطورة . فما قاله فى شكل حكاية . هـــو بعينه الحقيقة التى أحس بها . لا أكثر ولا أقل .

والمثال التالى يوضح لنا ذلك . تقول الأسطورة :

فى بداية الأمر كانت الأرض الام متزوجة من السماء . وكانت السماء والأرض ملتصقتين ، ولهذا فقد كان الظلام يسود الكون . ثم أنجبت الأرض الأبنـــاء من خلال هذا الزواج وهم الشمس والقمر والنجوم . وكاد يختنق الأبناء اذ كانوا محشورين بينهم .عندئذفكر الأبناء فى وسيلة يفصلون بها الأرض عن السماء حتى يجدوا مجالا للتنفس فأطلق بعضهم السهام فانفصلت السماء عن الأرض . على أن الأبناء آثروا بعد ذلك أن يعيشوا فى السماء حتى يكونوا فى مواجهة الأرض الأم ، كما تتمكن الام على الدوام من النظر اليهم ، وبهذا ساد الضياء الكون بعد أن كان يسوده الظلام .

وربما استبعدنا فى هذا المثال أن الانسان القديم كان على وعى تام بأنه يعقد مقارنة بين زواج الرجل والمرأة فى العالـــم الأرضى ، وزواج السماء والأرض فى الكون . اذ لم تكن الحالة الفكرية التى كان يعيشها الانسان القديم تسمح له بأن يميز بين الواقع والمثال أو بين الشىء والرمز . بل ان الصورة التى صورها كانت بالنسبة له تمثـــل الحقيقة بعينها . فالأرض تخصب وتنتج والانسان يفلحها ويبذر فيها البذور فتنمو ، تماما كما ينمو الجنين فى بطن أمه . فـــلا غرو بعد ذلك أن تكون الأرض هى المصدر الأول للأخصاب وأن تكون هى الام الاولى .

أو الام الكبرى ، لا على سبيل الاستعارة أو المثال ، بل على سبيل الحقيقه كما يحسها وينفعل بها • واذا كانت الأرض هى الأم الكبرى، فلا بد أن يكون لها زوج وأبناء حتى تكتمل الحياة الأسرية التى تعد مصدر الحياة والعامل الأول على استمرارها • وفى هذه الحالة تصبح السماء هى الزوج ، كما يصبح الأبناء هم النجوم والكواكب •

وهكذا نرى كيف كانت الأسطورة وسيلة للتعبير عن النوازع والمشاغل الداخلية عند الانسان القديم • وتشبه الصور التى تتألف من عملية اخراج هذه الدوافع الداخلية تلك الصور التى تتشكل فى الحلم كما سبق أن ذكرنا • فالحلم يخرج ما فى النفس من دوافع الخوف والرغبة فى شكل صور ورموز ، فاذا بالمشكلات الداخلية المعقدة تتحول من تلقاء نفسها الى موضوع حكاية •

وفضلا عن أن الأسطورة تعد اخراجا لدوافع داخلية ، فهى من ناحية أخرى ، تساعد الانسان على تحديد مفهومه بالنسبة للكون • وقد حددت الأسطورة السابقة مفهوم الانسان للكون فى مراحل ثلاث : مرحلة كان الظلام يسود فيها الكون • والظلام مرادف للفوضى • أى الزمن الذى سبق النظام الكونى • والمرحلة الثانية هى مرحلة البحث عن حل نتجية الاحساس بالقلق ازاء هذا الوضع•ويشار الى هذا الحل بتمكين الأبناء ، أبناء الارض والسماء ، من التخلص من حالة الاختناق • أما المرحلة الثالثة ، فهى التى يتحدد فيه النظام الذى تعرف فيه وظيفة كل شىء وتظل الأشياء ، على الرغم من انفصالها ، مرتبطة كل الارتباط بعضها ببعض •

وليست هناك فى الحقيقةظاهرة كونية لم تشغل الانسان القديم، ومن ثم خلع عليها احساسه وشعوره فى شكل حكاية تصويرية • وربما كانت ظاهرة الخصب والجدب من أكبر الظواهر الكونية التى شغلت الانسان القديم ، بحيث أصبح لكل شعب من شعوب العالم أسطورة تحكى بشكل أو بآخر قصة الخصب والجدب كماارتسمت فى مخيلة الانسان القديم • ولست الحياة جدبا صرفا ، كما أنها ليست خصبا صرفا ، انما هى مزيج من الجدب والخصب ، أو لنقل ان

والخصب والجدب متعاقبان تعاقب الليل والنهار . وقد حكى الانسان قصة هذا التعاقب مجسدة فى شكل صراع بين الاله الخير ، اله الخصب ، والاله الشرير ، الجدب •

ويمكننا أن نقدم أسطورة أوزوريس وايزيس المصرية القديمة مثالا لهذا النوع • فأوزوريس هو آله الخصب ، وهـو يموت مـع فترة انتهاء الخصب ويحيا مع عودتها • كمـا أنه يجلس على كرسى القضاء الأعلى الذى يقرر مصير الأرواح التى فارقت الحياة • ولذلك فهو على صلة بطقوس التحنيط المعقدة (١) •

وتحكى الاسطورة أن أوزوريس كان ولد جب اله الأرض ، كما أن ايزيس ، التى كانت تشاركه الحكم وتعاونه فى أفعاله الخيرة ، كانت أخته وزوجته • ثم دبر الاله الشرير ، بدافع الكيد لأخيه أوزوريس ، مؤامرة استطاع عن طريقها أن يحبس أوزوريس فى صندوق وأن يلقى به فى النيل • وحمل التيار الصندوق حتى وصل الى بيبلوس وقذف به على شاطىء النهر فنبتت فى مكانه شجرة ضخمة من أشجار الجميز • وراحت ايزيس تبحث عن زوجها فى كل مكان ، وركبت النيل حتى وصلت الى مكان الصندوق • وهناك تحت شجرة الجميز التى احتوت الصندوق نامت ايزيس وحملت فى ابنها حروريس • ثم حدث أن أعجب ملـك بيبلوس بتلك الشجرة الضخمة الرائعة وأمر بقطعها وحملت الشجر والصندوق الى قصر الملك • واحتالت ايزيس حتى عملت بالقصر خادمة واستطاعت أن تهرب بجسد أوزوريس حتى وصلت مقرها الأول • ولكن سث عثر على جثة أخيه مرة أخرى ، فأخذها وقطعها قطعـا وبعثرها فى أماكن مختلفة • ولكن ايزيس استطاعت أن تجمع الاشلاء وأجرت الطقوس فعادت الحياة الى الجثة • غير أن أوزوريس لم يمكث فى العالم الارضى • بل أصبح الآها يقرر مصير الارواح التى تغادر العالم الارضى •

ثم يحكى الجزء الثانى من الاسطورة عن انتقام حوريس من صت وأعداء أبيه • وقد فقد حوريس احدى عينيه فى هذه المعارك التى

S.H. Hooke . Middle Eastern Mythology, London 1963. PP. 11, 12.

دارت بينه وبين أعداء أبيه أوزوريس • وبعد ذلك عينت الآلهة حوريس ملكا على الوجهين : القبلى والبحرى •

هذه هى أسطورة ايزيس وازوريس الطقوسية التى كان كثير من عناصرها يمثل فى الطقوس • فقد كان الشعب المصرى يحيى بعث أوزوريس عن طريق رفعه شجرة ضخمة تمثل شـــجرة الجميز التى نبتت حول صندوق أوزوريس ، كما كانت النســـاء يضـــعن تمثالا لاوزوريس وتلقين به فى النيل احياء لذكرى طرحه فى الماء •

وحول هذا الصراع نفسه بين الجدب والخصب تدور أســـطورة أدونيس وعشتروت • فلقد كان ادونيس شابا جميلا أغرمت بـــــه الالهه عشتروت • وذات يوم هاجم أدونيس ثور وحشى فأصابه بجرح أفضى به الى الموت • وحزنت عشتروت على فقد حبيبها حزنا بالغـــا وأخذت تتضرع للالة الاكبر لكى يعيد الحياة الى أدونيس • ووافـــق الاله على مطلبها على أن يكون احياؤه فى فترات معينة من الســـنة • وتشير الطقوس التى كانت تقوم بتمثيل هذه القصة عمليا ، كما يشير توقيت الاحتفال وطابعه الى أن الاله أدونيس كان تجسيدا للخصب الذى يختفى فترة ثم يعود • وكما كان الاحتفال بموت أوزوريس وبعثه يصحبه العويل الذى يشبه عويل أيزيس وهى تبكى زوجها الضائع ، كان الاحتفال بموت أدونيس يصحبه كذلك عويل النســـاء اللاتى كن يخشين العقم حيث أن مظاهر الجدب كانت تعم ، فى تصورهم ، الحياة جميعا •

وعلى هذا النحو كان البابليون يبكون اختفاء آلهم تموز • وقـــد تسبب اختفاء تموز فى جدب الأرض وعقم الانسان والحيوان • وعند ذلك رفع الناس أصواتهم بالصراخ متوسلين الى الاله تموز أن يعود اليهم • فأشفق عليهم الآله ووعدهم أن يعود اليهم فى فترة معينة من كل عام • وهاهو ذا النشيد الذى كان يغنيه الشـــعب البـــابلى بهذه المناسبة :

بكاؤنا يسمع فى كل مكان من الارض مرتفعاتها ومنخفضاتها •
لعله يصل الى بيت الآله
انه بكاء من أجل النبات الذى كف عن النمو

ومن أجل موت الشباب والاطفال
ومن أجل الشعير الذى ذبل
ومن أجل النهر الذى أصابه الجفاف
ومن أجل السمك الذى اختفى من مجارى المياه
ومن أجل الغابات التى لم يعد ينمو فيها شجر التمرسك
ومن أجل مخازن البيوت التى لم تعد تستقبل النبيذ والعسل
ومن أجل البرارى التى جفت حشائشها
ومن أجل القصر الذى ولت عنه بهجة الايام الماضية
فاذا عاد تموز غنى الشعب قائلا :
هاهى ذى الحشائش تكسو الارض المجدبة
وهاهى ذى المياة تعود فتجرى فى الجداول
وها هم الناس يعيدون بناء الحظائر التى كانت قد تهدمت

وتعد أساطير الجدب والنماء نقلة جديدة فى الاساطير الكونية • فنحن نلاحظ أن الاسطورة الكونية الاولى ، اسطورة زواج الارض والسماء ، لم تضف صفة الألوهية على السماء والارض ، كما أنها لم تجعل الصراع يدور بينهما وبين ظواهر كونية أخرى • أما فى هـذه الاساطير الاخيرة ، فقد جسد الخصب فى شكل الاله الخير ، كما جسد الجدب فى شكل الاله أو الكائن الشرير • وهذا من قبيل التصعيد فى تشخيص الظاهرة الكونية لكى تكون وظيفتها وخصائصها أكثر تحديدا بالنسبة للظواهر الكونية الاخرى وبالنسبة لعالم الانسان •

ثانيا : الاسطورة التعليلية :

وقد تكون الاسطورة التعليلية نمطا من أنماط الاساطير الكونية اذا حاولت أن تعلل ظاهرة كونية • وقد تكون نمطا قصصيا آخر ، فالانسان لا يكف عن التعليل والتفسير طوال مدة بقائة على سـطح الارض •

على أن الاسطورة الكونية التعليلية ليست وليدة الاحساس بعاطفة شعورية بين الانسان والظاهرة الكونية على نحو ما رأينا ، بل هى وليدة التامل الموضوعى فى ظاهرة قد تبدو غريبة وتحتاج الى تعليل ويمكن أن نقول بشىء من التجاوز ، ان الاسطورة التعليلية محاولة لاصطناع أسلوب منطقى فى تفسير الاشياء فى عصر غاب عنه الاسلوب العلمى لفهمها .

فاذا كانت ظاهرة ظهور الشمس بالنهار بدون نجوم ، وظهور القمر بالليل ومعه النجوم ، ظاهرة فلكية فسرت فيما بعد على نحو علمى ، فان الانسان القديم الذى لم يكن قد وصل بعد الى مرحلة فكرية تتيح له فرصة استخدام الوسائل العلمية للوصول الى أصول الاشياء ، فسر هذه الظاهرة بمنطقه البسيط الساذج ، فحكى كيف أن الشمس والقمر كانا متلازمين فى بادىء الامر وكان كل منهما يظهر بصحبة أبنائه وهم النجوم . ثم حدث بعد ذلك أن ضاقا بأبنائهما فاتفقا على أن يجمع كل منهما أبناءه فى جوال ويقذف به فى البحر . وأسرعت الشمس وجمعت أبناءها فى جوال وقذفت بهم فى عرض البحر . أما القمر فقد عاد وتدبر الأمر وخان الشمس واحتفظ بأبنائه . فلما علمت الشمس بذلك فيما بعد ، خاصمت القمر وأبت أن تظهر معه فى وقت واحد . ومنذ ذلك الوقت افترق الشمس والقمر وأصبح كل منهما يظهر فى وقت مخالف للاخر . كما أصبحت الشمس تظهر وحدها فى السماء بدون نجوم ، فى حين أن القمر يظهر وبرفقته أبناؤه النجوم .

وقد تساءل الانسان القديم كذلك عن سبب توزع الكائنات بين الأرض والبحر والفضاء . فعلل هذا بقصة الطوفان الذى أغرق الارض ثم أخذ يعلو حتى وصل الى قمم الجبال . فلما انحسرت المياه عن الارض تمت مع انحسارها عملية تصنيف الكائنات : فما لم يدركه الطوفان ، ظل فى الفضاء مثل الطيور . وما ظل الماء يغمره استقر فى البحار مثل الاسماك والزواحف ، أما الانسان فقد ظل يعيش على وجه الارض مع صنوف من الحيوان .

وعلى هذا النحو علل الانسان القديم كون الانسان نظيفا وأنيقا

فى مظهره وقذرا بداخلة • فحكى أن الآله القديم عندما فكر فى خلق الانسان بعد أن خلق الحيوان ، أتى بعجينة وشكلها تمثالا على هيئة الانسان ، ثم وضعها فى الهواء الطلق حتى تجف وتركها وصعد الى السماء • فأبصر العجينة المشكلة كلب وأعجبه شكلها ، فأخذ يلعقها بلسانه حتى لوثها تماما • فلما هبط الاله ليرى التمثال فوجىء بتلوثه وغضب لضياع جهده • ولكنه وجد حلا لهذه المشكلة بأن قلب التمثال فجعل باطنه ظاهره وظاهره باطنه • ولهذا السبب كان باطن الانسان قذرا فى حين أن ظاهرة نظيف •

ثالثا : الاسطورة الحضارية :

واذا سلمنا بادىء ذى بدء أن الانسان مر بمراحل حضارية مختلفة ابتداء من العصر البدائى أو الهمجى الى أن اصطنع لحياته شكلا منظما ماديا واجتماعيا ، فانه لابد أن يكون قد عبر عن هذا التغيير فى أساطيره • والاسطورة الحضارية هى تلك التى تكشف عن صراع الانسان مع الحياة لاصراره على الانتقال من المرحلة الطبيعية الى المرحلة الحضارية •

وقد كان الانسان فى المرحلة الطبيعية مشغولا بنظام الكون • وعندما تأمل النظام الكونى وجده ينتظم فى شكل من المجموعات الثنائية المتعارضة : فهناك على المستوى المكانى السماء والارض ، والبعيد والقريب ، وهذا الشاطىء ، وذاك الشاطىء الآخر . والارض المخضرة والارض القفر . وهذا العالم والعالم الآخر • وعلى المستوى الزمانى . هناك الليل والنهار والحياة والموت واليوم والامس • وهناك على المستوى التصنيفى للكائنات ، الانسان والحيوان ، والانسان والاله ، والرجل والمرأة • وعلى الرغم من أن كل وحدة من هذه الوحدات تبدو منفصلة حيث أنها تقوم بوظيفتها على حدة ، فان النظام الكونى لا يتمثل الا من خلال العلاقة الثنائية بين هذه الثنائيات المتعارضة • هذا ما وعاه الانسان القديم تماما ومن ثم بدأ يفكر فى وجوده على أساس هذا التعارض والتلاحم فى الوقت نفسة •وقد كان

أسفل منه ، واذا كانت السماء مكانا للآلهة ومركزا للضوء المشع والارض ناحية وتكاملة من ناحية أخرى • فاذا كانت السماء فوقه والارض أسفل منه ، واذا كانت السماء مكانا للآلهة ومركزا للضوء المشع والارض مكانا للانسان والحيوان ومصدر النعمة ، فالعلاقة ما تزال وثيقة بينهما ، بل ان أحد الطرفين لا يمكن أن يوجد منفصلا عن الطرف الآخر • ومهمة الاسطورة فى هذه الحالة ، أن تبرز التعارض بين السماء والارض وأن توجد العلاقة القوية بينهما ، وعندئذ ترتاح نفسه وتهدأ •

واذا كانت الحياة ضد الموت ، فلابد للانسان من البحث عن وسيلة تجمع بين هاتين الظاهرتين المتعارضتين وتقرب بينهما • وهذا يفسر فلسفته فى خلود الروح ويبرز مغزى أساطيره التى تحكى عن علاقة الاموات بالاحياء • فاذا كان الموت يختطف الاحياء ويبعدهم فى عالم آخر ، واذا كان الانسان لاحيلة له قط فى الاتصال بالأموات ، فان الحل الوسط عندئذ يكون عن طريق تفسيره لحياة ما بعد الموت ، والعلاقة المستمرة بين الاحياء والاموات •

وهكذا تحاول كل الاساطير الكونية أن توجد العلاقة الوثيقة بين المتعارضات بحيث يبدو نظام الكون مجموعة من الاقطاب السالبة والموجبة التى تنجذب نحو مركز محدد ، وهذا المركز هو الانسان نفسه • فمن صالح الانسان أن تتصالح السماء والارض ، والآلهة والبشر ، والنهار والليل ، والموت والحياة ، والخصب والجدب ، لان هذا التصالح هو الذى يضفى على حياة الانسان مغزى وقيمة • ولا غرو بعد ذلك أن نجد الانسان القديم يشخص كل ظاهرة ، سلبية كانت أم ايجابية ، فى شكل اله خير وآخر شرير ، وأن يجعل الصراع دائما بين القطبين المتعارضين المنجذبين •

على أن الانسان الذى انشغل بنظام الكون حقبة من الزمن ، لم يغفل عن التفكير فى نفسه وفى وظيفة وجوده فى الارض • وقد هداه تفكيره الى أن يكون لحياته نظاما شبيها بنظام الكون • فعندما تساءل من أنا ؟ وسط هذا الكون الكبير ، كان جوابه انه الكائن الذى يتميز عن

الحيوان من ناحية ، ويختلف عن الالهة من ناحية أخرى • فهو يختلف عن الحيوان من ناحية فى أنه قادر على صنع حياته بحيث ينتقل بها من المرحلة الطبيعية التى يعيش فيها الحيوان على الدوام ، الى المرحلة الحضارية التى يصنعها بنفسه • وهو يختلف عن الآلهة فى أنه لا يستطيع أن يستحوذ على ما هو خاص بالآلهة وحدها وهو الخلود •

فقد استطاع الانسان فى بادىء الامر أن يصنع القوس والرمح ويستخدمهما وسيلة فى صيد الحيوان ، وبهذا ابتعد خطوة عن عالم الحيوان اذ كان من قبل ينهش الفريسة مثله ويأكلها • فلما اكتشف النار واستخدمها فى طهى الطعام ، كان معنى هذا أنه انفصل تماما عن عالم الحيوان ، اذ أصبح يميز بين الشىء والمطهو من ناحية ، وبين الفاسد وغير الفاسد من الطعام من ناحية أخرى •

واستمر الانسان ينظم حياته فى أطار النظام الكونى الذى كان قد فرغ من تصوره على نحو يرضيه • فقد أصبح بعد ذلك يميز بين المحلل والمحرم لا على مستوى المأكل فحسب ، بل كذلك على المستوى الاجتماعى والجنسى ، فهناك المحظور وغير المحظور فى المعاملات الاجتماعية ، وهناك المحلل والمحرم على مستوى العلاقات الجنسية •

ثم تعدى تصنيف المستويات الحسية الى المستويات المعنوية فيما يرتبط بقيم الحياة بصفة عامة • فقد أصطلح على أن احدى يديه وهى اليمنى أفضل من اليد الاخرى وهى اليسرى • وأصبح اليمين يحمل مدلول الخير فى حين أن اليسار يحمل مدلول الشر • وعلى هذا النحو أصبح للون الاحمر والاسود • وبالمثل أصبح للمكان الخصب المأهول قدسية خاصة فى مقابل المكان الخرب الذى ترتع فيه العفاريت والشياطين •

ونحاول الآن أن نقدم نموذجا للاسطورة الحضارية لنرى الى أى حد يصور هذا النوع من الاساطير دور الانسان فى صنع حضارته • والاسطورة التى نقدمها كانت موضوع دراسة مستفيضة من العالم الانثروبولوجى ليفى شتراوس • وقد جمعت هذه الاسطورة حديثا

من الهنود التشيسمانيين الذين يسكنون الساحل الشمالى الغربى للباسفيك جنوب ألاسكا مباشرة • ومن اليسير فى هذه الحالة التعرف على حياة هذه الجماعة وبهذا يسهل الربط بين الاسطورة والظروف الحضارية التى تعيش فيها •

ولنبدأ الآن بذكر نبذة عن حياة هذه الجماعة من خلال ما توصل اليه البحث الميدانى • تسكن هذه الجماعة الساحل الشمالى الغربى للباسفيك جنوب ألاسكا مباشرة فى اقليم يجرى فيه نهر « ناس » فى الاتجاه الشمالى الشرقى • ونهر « سكينا » فى الاتجاه الجنوبى الغربى • ولا تعرف هذه الجماعة حياة الزراعة ، ففى الصيف تخرج النساء لجمع الفواكه والنباتات والجذور البرية ، بينما يصطاد الرجال الحيوان فى الجبال كما يصطادون الاسماك ويقومون بعد ذلك بتدخين جزء كبير منه وحفظه لفصل الشتاء • على أن هذا المخزون قد لا يكون كافيا للاستهلاك فى فصل الشتاء • ولهذا فان هذه الجماعة كثيرا ما تعيش فترة مجاعة قاسية حتى يظهر نوع من السمك فى هذا الوقت فى نهر ناس • عند ذاك يرحل سكان نهر سكينا الى شاطىء نهر ناس ، وبعد ذلك يعودون الى نهر سكينا مرة أخرى فى انتظار وصول سمك الصيف فى شهرى يونية ويولية •

هذا من الناحية الاقتصادية لحياة هذه القبيلة ، وأما ما يميز علاقاتهم الاجتماعية ، فان هذه القبيلة تنتمى فى نظامها الاسرى الى النظام الاموى ، فالزوج يعيش مع عائلة الزوجة كما أن الابناء يرتبطون كل الارتباط بالام •

ولنبدأ الآن فى عرض الاسطورة ، لنرى الى أى حد تعكس الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، والى أى حد تعكس الرغبة فى تغيير بعض هذه الاوضاع •

عندما أقبل فصل الشتاء وتجمد نهر سكينا الذى كان يحمل السمك لجماعة ، بدأت المجاعة • وكانت هناك أم وابنتها تعيشان منفصلتين • وحدث أن توفى زوجاهما بسبب هذه المجاعة ، عندئذ

تذكرت كل منهما الاخرى ، وقررت أن ترحل احداهما الى الاخرى لتجد عندها السلوى ، فتقابلتا عند منتصف الطريق وجلستا فى ظل شجرة . وأخذتا تأكلان بعض الفواكة الفاسدة . وفى أثناء الليل زارهما طائر غريب ساعدهما على الحصول على طعامها ثم تزوج الابنة وولدت منه ولدا سمته « أسديوال » . وكبر أسديوال فى سرعة مذهلة بفضل استخدام أبيه لوسائل سحرية . فلما شب عن الطوق سلمه أبوه الطائر أدوات سحرية تعينه فى رحلاته ، وهى قوس ورمح وحربة وسلة وحذاء للثلج ومعطف وقبعة . فاذا ارتدى أسديوال هذه الاشياء أصبح غير مرئى . ثم اختفى الاب الطائر بعد ذلك كما توفيت الجدة وأصبح أسديوال وحده مع أمه . وبعد ذلك اصطحبت الأم الابن واستأنفت السير غربا حيث موطنها الاصلى .

وذات يوم أبصر أسديوال دبة غريبة عن القرية ، فراح يصطادها مستعينا بالادوات السحرية التى تسلمها من أبيه ، ولكن الدبة أسرعت فى جريها حتى وصلت الى سلم وأخذت تتسلقه . واقتفى أسديوال أثرها وتسلق السلم وراءها ، فاذا بالدبة تسوقة الى السماء حيث المراعى الخضراء وحيث بيت أبيها الشمس . وهناك تحولت الى امرأة جميلة وكانت تدعى « نجمة السماء » .

وتزوج أسديوال « نجمة السماء » فى عالم السماء . ولكنه عاد بعد فترة وطلب العودة الى الارض ، ووافق الاب الشمس على ذلك وسمح له بأن ترافقه زوجته . وأخذت الزوجة تحذر أسديوال طول الرحلة من أن يخضع لاغراء نساء قريته وأكد لها أسديوال بأنه لن يخونها . ولكنه عندما استقر فى قريته وقع فى أسر احدى النساء ، فغضبت « نجمة السماء » وصعدت الى أبيها فى السماء . وتبعها أسديوال وهو يصرخ بها أن تصفح عنه ولكنها صوبت اليه نظرة غضبى قضت عليه فى الحال ، ومات . وأشفق عليه الاب الشمس فأعاد اليه الحياة وسمح له بأن يعاشر زوجته فى السماء مرة أخرى . وما لبث أسديوال أن شعر بالحنين الى قريته وتوسل الى زوجته أن تصحبه هذه المرة كذلك الى هناك . وتظاهرت « نجمة السماء »

بالموافقة على صحبته وسارت معه حتى منتصف الطريق ثم تركته فجأة وصعدت الى السماء بينما استأنف هو مسيرته الى قريته حيث بلغه نبأ وفاة أمه .

ولما شعر أسديوال بأنه غريب فى قريته بعد وفاة أمه ، رحل الى قرية أخرى حيث تزوج بأبنة رئيس القرية . وقد كان للزوجة أربعة اخوة كان أسديوال يصحبهم فى الصيد البرى . فلما حل فصل الربيع ، تحركت الاسرة جميعها الى شاطىء نهر « ناس » لاصطياد ما يظهر فيه من السمك فى هذا الفصل . وهناك نشب الخلاف بين أسديوال واخوة زوجته حول أفضلية صيد الجبال وصيد البحار ، وكان أسديوال يفضل صيد الجبال . وحسما للخلاف انتهوا الى أن يذهب أسديوال ليصطاد فى الجبال ، وأن يذهبوا هم ليصطادوا السمك من النهر . وبعد فترة عاد اسديوال بصيد وفير وعادوا هم بلا صيد . فلما زهاهم اسديوال بصيده ، غضبوا وأخذوا أختهم ورحلوا . وبعد وقت وفد على اسديوال أربعة أخوة آخرين جاءوا بصحبة أختهم ليصطادوا من النهر . وتوطدت العلاقة بين أسديوال وهؤلاء الاخوة وتزوج بأختهم . وبعد الفراغ من الصيد عاد الجميع الى قرية الاخوة .

وأصبح اسديوال ثريا بعد ذلك وذاع صيته فى قدرته على صيد عجول البحر . وزها أسديوال مرة أخرى على أخوة زوجته وكان قد رزق من أختهم بطفل صبى . وأضمر له الاخوة أن يغدروا به ، فاصطحبوه الى البحر لصيد عجول البحر ثم تركوه وحيدا بلا طعام أو نار . وهبت عاصفة هوجاء ولم يتمكن أسديوال من المقاومة ، ولكن روح أبيه الطائر تمثلت له وحولته الى طائر ظل يحلق فوق الامواج . فلما هدأت العاصفة عاد أسديوال الى شكله الاصلى وراح فى سبات عميق . فجاءه فأر وايقظه وقاده الى مسكن لعجول البحر تحت سطح الماء ، وكانت هى العجول بعينها التى صوب اليها سهامه من قبل . فلما وجدها تحتضر ، انتزع منها السهام فشفيت فى الحال . فكافأه ملك عجول البحر بأن أعانه على الصعود الى البر . وهناك وجد

على الشاطىء زوجته المخلصة فى انتظاره ومعها ابنهما ، وكانت قد انتقمت له من قبل من اخوتها الاشرار .

وذات يوم اصطحب ابنه الى قريته بعد أن استأذن زوجته، وذات يوم خرج للصيد كعادته وكان قد نسى حذاء الثلج السحرى . فضل طريقه وظل تائها حتى تحول الى صخرة بارزة على قمة جبل . أما ابنه فقد عاد بعد ذلك الى أمه لما وجد نفسه وحيدا .

هذه الاسطورة تتضمن شواهد ترتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الحضارية التى تعيش فيها تلك الجماعة . ولا يعنى هذا ان هذه الشواهد من الوضوح بحيث يلمسها كل قارىء للاسطورة ، بل ان هذا النوع من الاساطير يحتاج بصفة خاصة الى منهج معين من التحليل يقوم بعملية الربط بين الاطر المختلفة التى يتكون من مجموعها ما نسميه بالموقف الحضارى الذى تعيش فيه جماعة من الجماعات ، فهناك الاطار الجغرافى والاطار الاقتصادى ثم الاجتماعى والاسرى، وأخيرا نجد الاطار الكونى . ونحاول الآن أن نعرض هذه الاطر المختلفة لنرى الى أى حد تتشابك معا لتصور الموقف الحضارى الذى يعيش فيه البطل .

الاطار الجغرافى :

وتكشف الاسطورة فى وضوح عن المجال الجغرافى الذى تعيش فيه القبيلة . فالقبيلة التى يرمز اليها بالبطل مع أمه أو الام مع ابنتها، او البطل مع زوجته واخوتها ، تتحرك شرقا او غربا وفقا للظروف الطبيعية والجغرافية التى تعيش فيها .

وليس **المجال الاقتصادى** أقل وضوحا من المجال الجغرافى فى الاسطورة . فمن الواضح ان حياة القبيلة تعتمد على صيد الحيوان وصيد السمك ؛ وهى تجرى وراء الصيد أينما كان .

أما من ناحية **المجال الاجتماعى** ، فقد سبق ان ذكرنا أن النظام الاموى هو النظام السائد فى هذه القبيلة ؛ وأن الزوجة ترحل مع

زوجها لتقيم معه فى موطنه ، ولكن الابناء يحتفظون بانتمائهم للام • وتؤكد الحكاية هذه القيمة الاجتماعية وهى رابطة الامومة فى اكثر من موضع . كما تؤكد رغبة المجتمع فى التخلص من هذه العادة فى أكثر من موضع كذلك . فقد نزحت الابنه فى بداية الحكاية مع أمها لتقيم معها ، وفى الوقت نفسه أرادت الام أن تعيش مع ابنتها مرة أخرى ، ولهذا فقد تركت بيتها ورحلت اليها • وقد تزوج أسديوال ثلاث مرات فشل فيها جميعا • ويرجع فشله الى عدم ارتياحه للاقامة مع زوجته فى مقامها الاصلى ، أو لانه كان كثيرا ما يختلف مع اخوة الزوجة • فقد تزوج فى بادىء الامر من « نجمة السماء » التى استدرجته الى مقامها فى السماء • وفشل أسديوال فى هذا الزواج بسبب حنينة الدائم الى عالم الارض • ثم تزوج بعد ذلك مرتين من امرأتين كانتا مرتبطتين باخوتها أى بأسرتها ، وثار أسديوال على الاخوة مرتين وكان هذا سببا فى فشله فى الزواج الاول وترك زوجته واصطحاب ابنه الى مقره الاصلى فى الزواج الثانى • وينتهى الامر بفقد أسديوال لحياته . ومعنى هذا أن هذا النظام قد أفقدة حياته حيث أنه لم يكن قد توصل الى حل بعد •

على أن هناك تكملة أخرى للرواية تحكى عن مغامرات ابن أسديوال المسمى « ووكس » • وقد سبق أن ذكرنا أن ووكس عاد فالتقى بأمه بعد أن فارقه أبوه • وكان ورث أدوات أبيه السحرية وأصبح مثله صيادا ماهرا ثم تزوج ابنة خاله وأنجبت منها توأما وكانا صبيين • وذات يوم خرج مع ابنيه للصيد فزلت قدماهما وخرا صريعين •

وبعد ذلك خرج ووكس للصيد وتسلق صخرة تاركا زوجته أسفل الصخرة وهناك داهمه زلزال أطيح به • فأخذ يصرخ على زوجته بأن تقدم شحما ضحية للاله حتى تبعد عن الزلزال • ولم تسمع الزوجة نداء زوجها وظنت أنه يطلب منها أن تتناول قدرا من الشحم • فأخذت تأكل الشحم حتى امتلأت وانفجرت وتحولت الى صخرة • أما ووكس فقد قضى عليه الزلزال وتجمد وتحول الى صخرة كذلك • وبذلك قضى على أسرة أسديوال بأسرها •

وهنا نلاحظ أن ووكس انضم الى أمه واستسلم لرغبتها فى أن يتزوج من ابنة أخيها ، ولكن المجتمع لم يكن قد استقر بعد على تغييره. ولما كان هذا النظام ليس فى صالح الأسرة والمجتمع فقد عبرت الأسطورة عن خطره بأن قضت على الأسرة بأسرها ، وذلك على الرغم من أن الأسرة كانت قد وصلت من حالة الجوع الى حالة الشبع . ولكن الانسان يتحرك فى حياته فى اطار بنائى واحد ، فاذا تداعى جزء من هذا البناء تداعى البناء كله . ويؤكد هذا فى الأسطورة على نحو رمزى أن الأم ماتت فى بدايتها من الجوع وماتت فى نهايتها من الشبع .

فاذا انتقلنا الى **المجال الكونى** فى الأسطورة ، نجد أن البطل أسديوال فشل فى أن يلتحم بعالم السماء وارتد منه الى عالم الأرض ثم مات فى النهاية ، وكذلك ابنه ، على قمة الجبل . أى أن كلاهما مات معلقا بين السماء والارض ، أى أنها لم يستطيعا أن يلتحما لا بعالم السماء ولا بعالم الارض .

وهكذا نجد كيف أن الأسطورة ، بنظامها الرمزى ، تعد تعبيرا عن بناء الفكر الانسانى الذى يتميز بقدرته على استيعاب النظم التى يعيش فى اطارها فى وحدة واحدة، وكيف أن هذا الفكر يدرك المتناقضات ويرى ضرورة الوصول الى حل لها .

ويتضح هذا المعنى فى أسطورة عربية (١) عثرنا عليها فى ثنايا الكتب . وتحكى هذه الأسطورة أن قبيلة مراد كانت تعبد نسرا يأتيها فى كل عام فيضربون له خباء ويقرعون بين فتياتهم فأيتهن اصابتها القرعة أخرجوها الى النسر فادخلوها من الخباء . فيمزقها ويأكلها ويؤتى بخمر فيشربه . ثم يخبرهم بما يصنعون فى عامهم ويطير . ثم يأتيهم فى عام قابل فيصنعون به مثل ذلك . وأن النسر أتاهم لعادته فأقرعوا بين فتياتهم ، وأصابت القرعة فتاة من مراد ، وكانت فيهم امرأة من همدان قد ولدت لرجل منهم جارية جميلة ومات المرادى وتيتمت الجارية . فقال بعض المرادين لبعض : لو فديتم هذه الفتاة

---

(١) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ١٦٧

عن ذلك فكتمته ، ودخلت الفتاة بعض بيوت أهلها فأخذت تبكى على نفسها ببعض أبيات من الشعر لكى تسمع خالها • وسمعها الخال فقال لأخته : مابال ابنتك ؟ فقصت عليه القصه • فلما أمس الهمدانى أخذ قوسه وهيأ أسهمه • فلما أسود الليل دخل الخباء فكمن فى ناحية وقال لأخته : اذا جاؤوك فادفعى ابنتك اليهم ، فأقبلت مراد الى الهمدانية فدفعت ابنتها اليهم فأقبلوا بالفتاة حتى أدخلوها الخباء ثم انصرفوا • فخجل النسر نحوها فرماه الهمدانى بسهم فانتظم قلبه • ثم أخذ أخته وترك النسر قتيلا • وأخذ أخته ورحل • وعظمت المصيبة على قبيلة مراد بقتل النسر ، فأشعلت نار الحرب ضد قبيلة همدان • وظل الصراع بينهما حتى جاء الاسلام محجر بينها •

ان الفكر العربى يتحرك فى هذه الأسطورة على مستويين : مستوى كونى ومستوى اجتماعى • أما المستوى الكونى فيتضح من أن النسر الآله كان مكيفا لحياة الجماعة ولهذا فقد سلموا أنفسهم كلية له • وأما المستوى الاجتماعى فهو أن الجماعة لم تكن تحس بمسئوليتها فى صنع حياتها وتاريخها • على أن الانسان أدرك بعد ذلك التناقض الذى يعيش فيه من حيث كونه مسئولا من ناحية وغير مسئول من ناحية أخرى . ولهذا كان لابد أن يصل الى حل هذا التناقض عن طريق قتل النفس الذى يعد واسطة غير محققة لتطور الانسان •

رابعا : الأسطورة الرمزية :

وربما كانت هذه التسمية مضللة الى حد ما حيث أن الأساطير جميعا تتحدث من خلال الرمز كما سبق أن ذكرنا • فما الداعى اذن لأن نخص نوعا من الأساطير بهذا العنوان ؟

سبق أن ذكرنا أن الانسان القديم كان ينظر الى الرمز فى تلك الأساطير السالفة بوصفه حقيقة • ولكن الانسان ، عندما نما وعيه بنفسه بعد ذلك أصبح ينظر الى الشخوص الأسطورية نظرة يسورها الشك . أى أنه لم يعد يسلم بنظرة الانسان السابق لها • وقد كان

هذا معناه أنه بدأ يوظف تلك الشخوص بدرجة ما على نحو رمـــزى ، وهـــذا ما نعنيه هنا بالأسطورة الرمزية . ومعظم الأساطير الاغريقية المتأخرة يمثل هذا النوع ، على الرغـــم من استمرارها فى توظيف الاسطورة على نحو ما بينا وهو القاء مزيد من التحديد للمفهومات الكونية وعلاقـــة الانسان بها .

والاسطورة التالية توضح ما نعنيه :

كانت «منيرفا» آلهة الحكمة ، ابنة الآله جوبيتر ، ويقال انها انبثقت تلقائيا من عقله . وكانت المهيمنة على الفنون النفعية والجمالية،كماأنها نصبت ملكة على أثينا اثر منافسة بينها وبين الآلهة « نبتون » انتصرت فيها منيرفا .

وكان الانسان قد أصبح متقنا لفنونه . ولكن أثينا كانت ما تزال ربة هذه الفنون . ثم ذاع بعد ذلك صيت فتاة تدعى « أراخنى » فى صناعة الغزل والنسيج . وكانت الفتاة قد بلغت فى فنها حدا مـــن الاتقان بحيث أن الحوريات أنفسهن كن يتركن أبكاتهن ونافورتهـــن ويجلسن من حولها يراقبنها وهى تبدع فى عملها منذ اللحظةالتى تتسلم فيها المادة الخـــام فتعزلها لكى تصنع منها خيوطا شفافة ناعمـــة كالسحاب ، حتى اللحظة التى تنسج فيها لوحاتها الرائعة . وشـــاع الخبر بعد ذلك انها قد تلقت تعليمها على يد مينيرفا نفسها . ولـــكن « أراخنى » أنكرت ذلك تماما وقالت عبارتها التى أغضبت الالهـــة : اننى لست تلميذة للالهة . ولتتفضل الآلهة فتتبارى معى فى صناعة النسيج ، فاذا انهزمت أمامها فاننى على استعداد لأن أدفع الثمن . وسمعت الآلهة هذا القول واستاءت له وقررت أن تضع حدا لغـــرور هذه الفتاة . فتنكرت فى زى امرأة عجوز ودخلت على « أراخنى » بهدف اسداء النصح لها . وقالت لها : فى وسعك أن تزهى بفنـــك وتتحدى به قريناتك من عالم البشر . ولكن لا داعى لأن تتحدى الآلهة، باينة الهمدانية ؟ فأجمع رأيهم على ذلك . وعلمت الفتاة مايراد بهـــا ، ووافق ذلك قدوم خالها . فلما قدم على أخته رأى انكسار ابنتها فسألها

بل اننى أطلب منك أن تطلبى الصفح من الآلهة منيرفا ، وسوف تصفح عنك لكرمها .

وما كادت المرأة العجوز ، أى الآلهة ، تفرغ من كلامها ، حتى توقفت يد أراخنى عن النسيج ، وألقت على العجوز نظرة ملؤها الغضب وقالت : احتفظى بنصائحك هذه لبناتك ومن يعملن معك ، أما أنا فاننى أعرف ما أقول وأنا متمسكة برأيى لأننى لست خائفة من الآلهة . دعيها تجرب مهارتها معى اذا كانت على استعداد لأن تخوض هذه المخاطرة .

عند ذاك أجابتها العجوز قائلة : ها هى ذى الآلهة قد حضرت اليك . ثم خلعت عنها القناع وبدت على حقيقتها . وفوجئت الحوريات بالآلهة وهى تقف أمامهن ، فانحنين فى خشوع وانسحبن . أما أراخنى ، فقد وقفت صامدة دون أن يعتريها أى خوف . حقا أن الخجل لون وجهها ولكنها لم تزحزح عن رأيها .

عند ذاك اتخذت كل منهما مكانا وشرعت فى اعداد الصوف للغزل ثم تهيئتا لنسجه . وبدأت مينيرفا فى رسم صورة نسيجها ، فنسجت صورة صراعها مع نبيتون من أجل الحصول على عرش أثينا . فبدت الالهتان وسط الصورة ومن حولهما اثنا عشر الها يتوسطهم جوبيتر . أما فى أركان الرقعة ، فقد صورت الآلهة وقد بدا عليهم الامتعاض بسبب تدخل البشر فى شئونهم وكأما أرادت منيرفا أن تحذر منافستها حتى تستسلم قبل أن تخسر الجولة .

أما أراخنى فقد اختارت موضوعا تبرز فيه أخطاء الآلهة . فصورت جوبيتر وقد بدا متنكرا فى عدة أشكال ليخدع النساء اللاتى كان يرغب فى اغتصابهن ، فقد دخل على « دانای » قصرها المحكم اغلاقه فى صورة رذاذ ذهبى . وبدا لأوربا فى شكل ثور وديع خدعت به أوربا وامتطت ظهره فطار بها عبر البحار وهى تصرخ برفيقاتها وقد زاغ بصرها وهى تنظر الى الشاطىء الذى بدا يختفى رويدا رويدا .

ولم تتمالك مينيرفا نفسها من الاعجاب ، ولكنها لم تستطع أن

تقاوم الاحساس بالاهانة • وفى لحظة ضربت نسيج أراخنى فتمزق ثم لمست جبينها وجعلتها تشعر بالخجل ولذنب • ولم تصمد أراخنى أمام هذا الموقف وشاءت الانتحار • فعلقت نفسها فى حبل • ونظرت مينيرفا اليها وهى تتدلى من الحبل وقالت لها : لا أنك لن تموتى أيتها المرأة المذنبة ، بل ستظلين معلقة فى الحبل أنت ونسلك من بعدك • ثم نثرت عليها سائلا ، وفى الحال تساقط شعر أراخنى وسقط أنفها وأذنها والتصقت أصابعها الى جبينها ، ثم تقلص جسمها وصغرت رأسها وتحولت الى حشرة العنكبوت التى تظل معلقة فى السقوف وتصنع نسيجا من عصارة من جسمها •

وهكذا عبرت الأسطورة عن اعتداد الانسان بنفسه فى فترة متأخرة من الزمن • لقد أصبح الانسان يميز بين ماله وما للآلهة ، ولم يكن يريد أن يتنازل عن حقه • ولهذا فاننا وجدنا مينيرفا تنزل من عليائها لتنزع من الانسان حقا اكتسبه لنفسه ، ولم يكن من السهل على الانسان أن يتنازل عن هذا الحق بعد أن أثبت مضماره فيه •

خامسا : أسطورة البطل المؤلة :

وكلما حسمت بعض الأساطير حق الانسان فى مواهب مصدرة يستطيع بها أن يثرى عالمه ، كذلك حسمت أساطير أخرى حق الآلهة فيما لا يجوز للانسان أن يدعيه لنفسه من حقوقها • وهذا الانسان الذى يجرؤ على أن يقتحم عالم الآلهة لكى ينتزع منها لنفسه مالا يمكن أن يكون من حقوقه ، هذا الانسان لابد أن يكون بطلا ذا صفات معينة • انه الانسان المؤله الذى يمثله جلجامش من ملحمته الشهيرة باسمه أروع تمثيل •

واذا كانت ملحمة جلجامش قد اشتهرت بوصفها ملحمة ، فانها تعد كذلك أسطورة بمحتواها • ونظرا لأهمية هذه الملحمة الأسطورية ، فاننا نود أن نقدم عرضا تفصيليا لها مع دراسة موجزة لمغزاها وقيمتها الفنية حيث أنها ماتزال تعد اثرا أدبيا خالدا حتى اليوم •

اسطورة جلجامش :

فى اواخر القرن التاسع عشر غنم العلم مغنما كبيرا حينما عثر العلماء على قطع متفرقة من ملحمة جلجامش فى مكتبة قصر الملك آشور بانيبال فى نينوى — عاصمة الدولة الاشورية التى كانت تقع على نهر دجلة فيما يقابل حاليا مدينة الموصل . ثم نشط العلماء بعد ذلك فواصلوا البحث حتى اهتدوا الى الملحمة كاملة مكتوبة باللغة الأكادية . والملحمة تنقسم الى اثنى عشر لوحا ، وفى نهاية كل لوح بداية اللوح الذى يليه . فيما عدا الواح الثانى عشر الذى لم يتضمن فى نهايته بداية للوح جديد ، مما حمل الباحثين على الجزم بأن الملحمة تقع فى اثنى عشر لوحا فحسب ، بخاصة وأن القصة تنتهى مستوفاة بنهاية هذا اللوح . وفضلا على ذلك فان الملحمة تتضمن أشارات كتابية تحدد على وجه التقريب الزمن الذى نشأت فيه الملحمة . فقد ورد فى بدايتها أن هذه المخطوطات قد نسخت وجمعت من مخطوط قديم ، وأنها تقع فى حوزة ملك العالم أشور بانيبال — ملك الأشوريين . على أن هذا النص الصريح لم يقدم بيانات كافية عن هذا المخطوط الذى نقل عنه . كما أنه لم يذكر مكانه . ويرجح الباحثون أن المخطوط الأقدم يرجع الى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد .كما تشير الى ذلك الاشارات التاريخية بالملحمة . فجلجامش — بطل الملحمة — كان ملكا بابليا حكم فى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد واتخذ من ورقا عاصمة له . وكذلك تذكر الملحمة أن جلجامش ابتنى حول ورقا سورا . وقد أثبت البحث العلمى كذلك أن العهد الأول لهذا السور يرجع الى هذا التاريخ . وعلى ذلك فاذا كان مخطوط نينوى يعتمد على مخطوط آخر ، فهو أنما يعتمد على الاصل الأول للملحمة البابلية التى كتبت لتصور مأساة الملك البطل جلجامش .

وكان أول ناشر لما عثر عليه فى البداية من مخطوط الملحمة هو « باول هاوبت » ، وقد نشر ذلك فى العدد الثالث من مجلة « المكتبة الأشورية » عام ١٨٨٤ م تحت عنوان « ملحمة النمرود البابلية » . ثم تلا ذلك نشر بعض أجزاء متفرقة أخرى قام بنشرها

« باول هاوبث » و « الفريد بريميز » • وبعد أن تم نشر المخطوطات المتفرقة ومقارنتها بعضها بالبعض الآخر ، تمكن الباحث « ب • ينش » من نشر الملحمة نشرا كاملا لأول مرة ، ثم أعقب ذلك بدراسة لهـا وتعليق عليهـا • ونتيجة لهـذا البحث أصبح اسم بطـل الملحمـة معروفا بصفة مؤكدة على أنه جلجامش وليس جيشتوبار أو أزدوبار كمـا اعتقـد بعض من سبقه من دارسى المخطوطات • أمـا اسم صديق جلجامش فليس من السهل الجـزم بـه ، هـل هو انجيـدو أو ابيـانى ، اذ أن الاسمين يذكران فى المخطوطـات على حـد السـواء (١) •

وهـذا نص الملحمة البابليـة « جلجامش » (٢) ، ونحن نخصه بعد ذلك بالعرض والدراسة • ولعلنـا نوفق فى ابراز قيمـة الملحمة الفنية والجمالية اللتين صيغت فيهما لا مأساة جلجامش فحسب ، ولكن مأسـاة كل انسان فى كـل زمان ومكان •

اللـوح الأول

كل شىء كان يراه سيد الأرض ، وكل مخلوق كان يعرفه • كان يتعمق النـاس فى حياتهم وكفاحهم ، وكان يطلع على السر ويكشف مكنون العلم منـذ عصر الطوفـان الى عصره • لقد سـار فى طريق بعيد ، فكان تجـوالله طويلا وكانت رحلتـه شاقة ، ثم ترك السطور التى حفرها فى الصخر تشهد على ذلك •

ابتنى البطل جلجـامش حـول ورقـا سـورا ، ووضـع أسـاس اينـا المقدس ــ المعبد الطاهر ــ ثابتـا كالصخر ، وحول السـور والمعبد وقف الحراس يقظين • كان ثلثـه انسانا وثلثـاه الهـا ، وكانت صورته الجسدية تبعث على الرهبة والخوف • مثيله لم ير الانسان فى الجمال والقوة ، فالأسد كان يمسك بشعر جسـده ويطعنه ، والوحوش كان يوقع بهـا فى الشرك فى سرعة وعنف • ثم كان قانون البلد كلمتـه وقوله • لم يشعر يومـا بالتعب ذلك الانسان

---

(١) George Bruckhart : Gilgamesch; Eine Erzaeh lung aus dem altent Orient. S. 66—67 (Insel Buecherei Nr. 203).

(٢) نقلنا نص الملحمة عن المرجع السابق •

السعيد أنبـائس • وكان الجميع فى خدمتـه : الاقويـاء والأسياد والحكمـاء ، ثم الصغار والكبار ، بل النسـاء كذلك • فلم يترك الفتاة لحبيبها ولم يترك البطـلة لزوجهـا البطل ، حتى ارتفعت أصواتهـن بالشكوى الى الالـه الكبير • رب السماء ورب ورقـا : « لقد خلقت الوحوش المفترسة والآسـاد الضارية ولكن جلجامش يفوقهـا قوة ، فمثيله لم نر أحـدا • الحبيبة لم يتركها لحبيبها ولا البطلة لزوجها البطل • واستمع الاله « أنـو » لشكواهن ، ودعـا الالهـة أورورو ـ خالقـه البشر ـ وقـال لهـا : « لقـد خلقت الوحوش يوم أن خالقت مردوك ، اله مدينة بابليون ، فاصنعى الآن مخلوقـا يشـبه جلجامش منافسا ، وحينئـذ يعم ورقـا الهـدوء •

وفى لحظة رسمت أورورو الصـورة فى ذهنها ، تمـاما كما طلبها الاله أنـو ، ثم أمسكت بتراب بللتـه بيصـاق الألوهيـة وصنعت انجيـدو •

وهناك وسط المراعى الشاسعة وقف انجيدو جاهلا لا يعرف شيئا عن الأرض وعن أهلهـا • وكان يكتسى جلد الاله « سوموكان » اله الجبال ، وكان يمـلأ جسده الشعر • كان يأكل مع الغزلان من عشب الحقـول ، وكان يشرب مع القطيع من ميـاه النبع • وعلى هـذا النبع كان يتردد أحـد الصيادين ، وكان يرى انجيدو مهـددا له • ولمـا حملق أنجيدو فى وجهـه ذات يوم ، رجع الصياد الى مسكنه غاضبا محنقـا والحزن يملأ قلبـه • لقـد بدا له ذلك الشبح كمـا لو كان سيد الجبال • ثم تقـدم بشكواه الى أبيـه وقال : « أبتـاه ، أرى رجلا قادمامن أعلى الجبـال ، يبـدو كمـا لو كان من سلالة الاله أنوس • ان قوته آسرة وهو يتجـول فى المراعى • ثم رأيتـه يقترب من النبع ويرقب القطيع • لقـد أثـارتنى هيئتـه وخشيت الاقتـراب منـه » • حينـذ رد عليـه الأب قائـلا : « اذهب الى ورقا •• الى جلجامش ، وتحدث معه عن قوة ذلك الرفيق المستوحش • توسـل اليـه أن يوقف على خدمتك أنثى ، ثم اصطحبهـا معك الى الخارج • فاذا ما انتشر القطيع حول النبع وظهر أنجيـدو ، خلعتـه

الأنثى عنها ملابسها وأسرته بامتلائها • فاذا ما وقعت عينـاه عليها افترب منهـا وتـرك القطيع » •

وذهب الابن بكلمات أبيـه الى ورقا ، واقتحم الأبواب وسجد أمام جلجامش وقال : « جاءنا رجل من أعلى الجبـال قوى فى قـوة اله السماء • فسيطر على المراعى بأسرها منـذ آن وطئتهـا قدماه • اننى أخشى أن تقـع عليـه عينى وأخشى أن أقترب منـه • كلمـا حفرت حفرة ملأها بالتراب ، وكلمـا نصبت شراكا حطمه • ثم انـه اذا بدا ولى القطيع هاربا » • حينئـذ رد عليـه جلجامش قائلا : « اذهب يا بنى واصطحب امرأة مشرقة من معبـد الالهـة عشتروث ثم قدها اليـه • فاذا رأته خلعت عنها ملابسها وأسرته بامتلائهـا وصرفتـه عن القطيع » • واصطحب الصـياد الأنثى حتى النبع ، واستقرا هناك • وجاء أنجيدو وأخذ يرعى ويرتوى مع القطيع • ولمحت المرأة الانسان المكتمل القوة ، المستوحش ، رجل الجبل • لقد جـاء بخطوات متئدة عبر المراعى ثم أخذ يتجسس حوله • • لقد اقترب • وأسر اليها الصياد كلماته : « انه هو أيتها المرأة اخلعى عنك ملابسك حتى تأسريه بامتلائك ، لا تنتظرى طويلا • ابعثى الشهوة فى نفسه ، انـه حينما يراك سيقترب منك،فأسريه بأنوثتك»وكشفت المرأة عن جسدها وأثارت الرغبة فى نفسه ، فاقترب منها أنجيذو وغفل عن القطيع ، واختلى أحداهما بالآخر ستة أيام وسبع ليال وبعدها أفاق أنجيدو وأحس أنه قد أشبع نفسه من جمالها ، ثم أرسل نظرة فى المراعى حوله ، لقد كان يبحث عن القطيع ، ولكنه لم ير شيئا • فتملكته الدهشة ووقف منعقد اللسان بلا حراك • ثم تحول الى الأنثى وركع أمامها ساجدا • فانطلقت تتحدث اليه وهو يصغى اليها : « انك تمتلك جمال الآلهة وقوتهـا ياأنجيدو ، فلماذا تسعى وراء الحيوان المتوحش فى المراعى • تعالى معى الى ورقا •• الى المعبد المقدس حيث أنوس وعشتروت •• بل الى القصر الذى يسطع بالأضواء حيث يسكن جلجامش ــ البطل الكامل الـذى يحكم بقوة لا مثيل لها بين البشر » •

وسعد انجيدو بحديثها : « هيا بنا يا سيدتى •• انطلقى بى الى البيت المقدس حيث أنوس وعشتروت،بل الى جلجامش ــ البطل الكامل •

اننى سأعود للقتال وسأهتف بصوت تصدع له الجبال حتى يسمع صداه فى ورقا : اننى أنا القوى ، قد خطت قدماى الميدان لأغير من مصير ورقا ! » •

وسار انجيدو مع المرأة الى ورقا،واستعدت المدينة لاستقبالهما، ثم دخلت المرآة به المعبد المقدس . فخلعت عليه ابهى الحلل وقدمت اليه خبز الاله وخمر وهى تسر اليه قائله « انجيدو يا من آمل ان يحيا طويلا ؛ أريد أطلعك على جلجامش الانسان السعيد البائس • سترى كيف أن عينيه تتقدان كالشمس ؛ وكيف أن عضلاته كالصلب، ثم كيف أنه يريفع بجسده فى زهو • التعب لا سبيل له اليه ، والخوف يبعثه فى نفوس الناس كما يفعل الاله أدد ــ اله الأعاصير والزوابع • ان جلجامش يتوقع ظهور منافس له ، اذ أنه رأى حلما أزعجه وجاء ليقصه على أمه وقال لها : « أماه •• فى هذه الليلة شاهدت حلما عجيبا . شاهدت أن نجوم السماء تتساقط حولى كقتلى الحرب . ثم تمثلت أمامى رجلا حاولت أن أرفعه . ولكننى لم أتمكن لثقله • ثم وقف حوله شعب ورقا يقبلون قدميه ؛ ولكننى قبضت عليه فى عنف حتى القيت به تحت قدميك • وحينما نظرت أنت اليه ؛ اتخذت منه ابنا لك وقدمته الى أخا فى كفاحى » • ونظرت الأم مفسرة الأحلام الى ابنها وقالت له : « اذا كنت رأيت نجوم السماء تتساقط واذا كانت قد تمثلت أمامك رجلا . واذا كنت حاولت أن ترفعه فلم تستطع ، ثم ألقيت به تحت قدمى فاتخذت منه ابنا ــ فكل ذلك معناه أن بطلا سيظهر منافسا لك • وبالرغم من أنك ستغلبه فانك ستتخذ منه أخا لك أن كفاحك سيكون كفاحه ؛ وسعادتك سعادته » • هذا هو الحلم الذى رآه جلجامش يا أنجيدو ! •

اللوح الثانى

وأخذ انجيدو يشق طريقه وسط الحشد الى جلجامش • لقد خرج الجمع ليشهد رجل المراعى والجبال الذى فاق رجال البلد طولا • ثم تقابل البطلان • وطلب انجيدو المبارزة . وغلب جلجامش انجيدو ورمى به الى الأرض ؛ ثم قبض عليه وألقى به تحت قدمى أمه •

واعترى الناس هول وفزع • ورفع انجيدو جسمه الضخم ناظرا الى جلجامش وقد علا وجهه السواد وملامحه الاكتئاب • ثم طرح ذراعيه الى جانبيه فى يأس واغرورقت عيناه بالدموع • ومدت الام يدها اليه وأمسكت به وقالت له : « انك ولدى يا انجيدو ، لقد ولدتك اليوم • اننى أمك وهذا أخوك » • وفتح انجيدو فمه وقال : « أمى • لقد عثرت على أخى فى الكفاح » • ثم قال له جلجامش : « انك صديقى فتعال نكافح معا جنبا الى جنب ! » •

ثم أراد الاله « أنليل » اله الأرض أن يحمى أشجار السدر ، فعين خومبابا حارسا عليها لينشر الرعب بين الناس • لقد كان صوته يشبه الرعد وأنفاسه تهتز لها الأشجار • عند ذلك قال جلجامش لانجيدو: « ان خومبابا يسىء الى (شمس) اله الشمس والقاضى فى الأرض والسماء • ان حمايته لأشجار السدر لم تعد تعرف حدودا . فكل من اقترب من الغابات أرداه قتيلا • ان قلبى يحدثنى بالبحث عنه • صديقى لماذا نبقى فى ورقا كسالى بلا عمل ؟ اننا نريد أن نغامر وأن نقوم بأعمال البطولات » •

انجيدو : ان قوة خومبابا لا تعرف الحدود كما ذكرت ياجلجامش وهل يمكننا نحن أن نقف أمامه أندادا ؟

جلجامش : صديقى •• اننا سنرحل سويا الى الغابات ، وسنقف سويا أمام خومبابا عدو الانسان والاله •

اللوح الثالث

لقد انتقل انجيدو الى البهو الملكى ، لكن قلبه كان حزينا ، بل كان يرف كالطائر فى السماء • لقد أخذ يحن الى المراعى والى قطيع الجبل ، ولم تكف أغنية الشوق عن التردد فى نفسه • فلم يستطع البقاء وخرج هاربا من المدينة الى المراعى مرة أخرى ، وانصدع قلب جلجامش اذ قد ولى صديقه • ثم اجتمع بالأسياد والأشراف وأخذ يتحدث اليهم: « ان الحزن يقتلنى بسبب غياب انجيدو ، فأنا أبكيه بعويل كعويل النساء • ان السيف الذى يتدلى من منطقتى ، والبهاء الذى يحيط بى ، بل القوة

الجبارة التى امتلكها ، كل هذا لا يعنى لى شيئا • لقد اختفى انجيدو وصديقى ، اختفى ليرعى مع وحوش الجبال مرة أخرى ، بل انه ولى ليسعى وراء امراته التى اضلته • اننى أعلن الحداد عليه منذ اليوم حتى ابحث عنه فى المراعى واعثر عليه » •

أما انجيدو فقد جلس وحيدا فى المراعى رافعا يديه الى السماء •• الى الاله الشمس متوسلا وهو يقول : « شمس ، أتوسل اليك أن تحل اللعنة بالصياد ، أن تزيل ملكه ، وأن تسلط الشياطين عليه فتعذبه ، والافاعى لتملأ حياته رعبا » • قال ذلك ثم نظر حوله فلم يجد امرأته ، فرفع صوته الى الاله مرة أخرى : « وهل يمكن أن يكون مصيرك أيتها الأنثى كما اتمناه ، حياة أبدية وحنينا ملتهبا الى يعيش فى نفسك الى الأبد ؟ • اننى أتمنى أن يكون الطريق مسكنك ، وأن التعب لا يفارقك ، وأن قدميك تظلان تدميان من السير • ان الجوع والعطش يعذباننى ، وذلك بسببك أيتها الأنثى • لقد أيقظت الرغبة فى نفسى فسعيت وراء المعرفة وأصبحت غريبا عن الوحوش ، اننى أطلب لك اللعنة لأنك قدتنى من المراعى الى المدينة » •

واستمع الاله شمس الى كلماته فأجابه : « لماذا تعلن المرأة يانجيدو ، لقد أطعمتك من مائدة الآلهة — طعام الاله ، ثم سقيتك الخمر — خمر الملوك • ثم ساقتك الى جلجامش السيد فاتخذ منك صديقا ، جلجامش الكبير اتخذ منك صديقا ، فأسكنك القصور وجعل الناس تقبل قدميك • انه الآن حزين عليك وقد أعلن الحداد بالمدينة ، بل انه قد ارتدى جلد الأسد وترك المدينة الى المراعى ليبحث عنك •

استمع انجيدو الى الاله شمس ، فاطمأن قلبه بعض الشىء • ثم لاحت له من بعيد سحابة من تراب • لقد جاء جلجامش ليقود أنجيدو مرة أخرى الى المدينة •

كان قلب انجيدو بعد ذلك مثقلا بالهموم • لقد رأى حلما أزعجه وأراد أن يحكيه لصديقه جلجامش قال له : « اننى رأيت حلما أقض مضجعى ، رأيت أن السماء تبرق ، وأن الأرض تهتز ، ورأيتنى أقف

وحيدا أمام مخلوق وجهه مكتئب أسود كالظلام • لقد كان يبدو أمامى شرسا ككلب المفاوز ، وفى لحظة قذف بى بعيدا فى حفرة ثم حولنى الى شكل آخر .واستبدل بذراعى جناحين وقال « الآن طر بجناحيك بعيدا حتى تصل الى طريق لا رجوع لانسان منه ، فسر فيه ، حتى تقابل بيتا لامخرج منه فأدخل فيه • هناك يعيش الناس فى حلكة دامسة ، فهم عن الضوء فى غناء » •

جلجامش : غدا نحيى الطقوس ونذبح الضحايا ونتوسل الى الاله أن يحول بين أرواح الموت وبينك يا أنجيدو •

اللوح الرابع

ثم نادى جلجامش وقال له : « استعد وصديقك لمصارعة « خومبابا » • لقد عين حارسا على أشجار السدر ولكنه أراد أن يكون اله الجبل • لقد أغضبنى « خومبابا » ، ولذلك أطلب منك محاربته • ثم ذهب جلجامش وانجيدو الى أشراف الشعب والقيا عليهم التحية قائلين : لقد طلب منا شمس أن نصارع خومبابا » •

أشراف الشعب : لتكن فى حفظ الاله شمس يا جلجامش ، ووقاك شر حارس أشجار السدر •

ثم ترك جلجامش وانجيدو الجمع وخرجا • فتقابلا مع أمهما التى كانت منصرفة الى الصلاة من أجلهما • ووجداها قد صعدت الى أعلى المعبد ، وأشعلت النار وأطلقت البخور ، وأخذت تهتف للاله شمس وتقول له : « لماذا أعطيت ولدى جلجامش قلبا لا يعرف الراحة ؟ لقد كان الهدوء قد وجد طريقه الى نفسه ، ولكنك بعثت اليه الحركة مرة أخرى • ثم طلبت منه أن يسير الى خومبابا .. الى معركة لا علم له بها • ولكنه لا بد أن سيسير اليها • ان البلاد سيعمها الفزع منذ اليوم الذى يرحل فيه جلجامش حتى اليوم الذى يعود فيه منتصرا على الشر، أننى أطلب منك يا اله شمس أن تحفظه » • قالت ذلك ثم أشعلت النار فصعد الدخان بدعائها الى السماء • ثم توجهت الى أنجيدو وقالت له :

«انجيدو أيها القوى .. انك لى سعادة وعزاء . كن حاميا لجلجامش ولدى » .

واستعد جلجامش وانجيدو للسير . ومن بعيد لمحا الجبل الشاهق وقد أطل من أعلاه بيت الاله . وكانت غابات السدر الكثة تحول بينهم وبين بيت الاله . فنصبا خيمتهما فى أسفل الجبل ثم أخذا يلتمسان الطريق لاقتحام الغابة . ولمحهما خومبابا ولم يكن مرتديا أثوابه السبعة السحرية ، فجرى فى الغابة كالوحش الجائع وزأر بصوته: « هيا اقتربا منى حتى أقدمكما طعاما للوحوش » .

وساعدت الآلهة البطلين ومكنتهما من الضرب . ولكن الضربة أصابت رجلا من رجال خومبابا . فسعدا بالضربة الأولى ، وبعدها نظر انجيدو الى صديقه وقال له : « صديقى ، لا نريد أن نتوغل فى الغابة أكثر من ذلك .. لا نريد أن نسير بعيدا فى الظلام .. اننى أشعر أن رجلى عاجزتان عن السير ويدى عن الضرب » .

جلجامش : لا تكن هكذا عاجزا يا انجيدو ، ألسنا مكلفين بالقضاء على خومبابا ؟ تذكر الاله شمس وحينئذ سيزول العجز عن رجليك ويديك . ثم سارا بعيدا حتى وصلا بالقرب من أشجار السدر .

اللوح الخامس

وهنا بدأ تجوالهما ، ومضت ساعة ولم يريا أثرا لخومبابا . ثم عم الظلام الكون وأضاءت النجوم السماء ، فركنا الى النوم وأحدهما يقول للآخر : « لنر كيف تكون أحلامنا الليلة » : وفى منتصف الليل استيقظ جلجامش يحكى حلمه لصديقه : « صديقى : لقد رأيت حلما مفزعا حقا . . لقد كنا نقف نحن الاثنين على قمة الجبل ثم انحدرت صخرة كبيرة الى أسفل محدثة صوتا كالرعد . ثم رأينا أنها قد قذفت معها بانسان طارحة به الى الأرض . عندئذ جرينا ، وفى لحظات كنا فى طريقنا الى ورقا » .

ثم استأنفا السير ساعات طويلة أخرى . وهبت رياح باردة وعاصفة هوجاء . وعندما أقبل الليل لجآ الى النوم من شدة التعب.

ثم استيقظ جلجامش مذعورا مرة أخرى وقال لصديقه : « صديقى ! لم تناديني ؟ وما الذى أيقظنى اذن ؟ انه حلم . . حلم مزعج للغايه : لقد أحسست بان الارض تهتز وان السماء تبرق ثم ابصرت نارا . وبعد ذلك هدأ كل شيء ولم ابصر سوى رماد » . واخبره صديقة مرة أخرى بأن الحلم يبشر بكل خير . ثم استأنفا السير ، حتى اقتربا من الهدف ، وقابلهما خومبابا وجها لوجه ساخرا بقوتهما . ولكن جلجامش قدفه فى سرعة وأصاب الهدف ، ومات خومبابا .

فاحتضن جلجامش صديقه وحملا الجثة ورميا بها فى الفضاء طعاما للطيور . ثم صعدا الى قمة الجبل حتى اقتربا من الآلهة.ولكنهما سمعا صوتا محذرا يقول لهما : « اذا كنتما قد اتممتما عملكما ، فارجعا الى ورقا . لا سبيل لانسان مصيره الموت أن يصعد الى أعلى قمة الجبل حيث تسكن الآلهة » . وهنا أدار البطلان ظهريهما الى بيئة الآلهة وسارا فى طريقهما الى ورقا .

اللوح السادس

وفى ورقا أغتسل جلجامش وجلا سيفه . ورآه الالهه عشتروت ، الهة الحب ، فاشتهته لنفسها وناديته : « جلجامش ، ما أبهاك وما أجملك اننى أريد أن أكون زوجا لك وأن تكون زوجا لى » . ولكن كلمات الالهة عشتروت لم تحرك جلجامش ساكنا ، بل انه رد عليها غاضبا وقال لها: « ماذا دهاك ياعشتروت ؟ وما الذى يمكننى أن أمنحك ؟ كم أحببت من رجال وكم أذللتهم . فماذا تريدين منى الآن ؟ وغضبت عشتروت وصعدت تبكى الى الاله الأعلى ، الى أنو وقالت له : « ان جلجامش قد عدد سوءاتى وأهاننى » .

أنو : أنك اذن طلبت حبة ولذلك فقد عدد سوء اتك عشتروت : أننى أطلب منك ان تجعل وحش السماء فى خدمتى . فأرسله الى ورقا ليعيث فيها فسادا . وان لم تفعل هذا سأفتح باب جهنم وأترك الشياطين تثير الاضطراب فى الأرض .

ورضخ أنو لمطلب عشتروت وأنفذ لها مطلبها . وهدد الوحش ورقا وأقض مضاجع الناس . ورأى جلجامش ذلك ، فاجتمع بصديقه وحاربا الوحش حتى أرديا قتيلا . ثم سجدا للاله شمس . ورأت

عشتروت ذلك فأنزلت اللعنة بجلجامش . أما سكان ورقا فقد اجتمعوا تحت أسوار قصر الملك جلجامش وأخـذوا يهتفون : من أجمـل رجال الأرض ؟ من سيد رجال الأرض ؟

جلجامش أجمل رجال الارض ، جلجامش سيد رجال الأرض .

اللوح السابع

واستيقظ انجيدو من نومه مذعورا ودخل على جلجامش وقال له : « لقد تدبرت الآلهة أمرها يا جلجامش وأحسبها أنها تدبر هلاكى . أن حلمى الليلة كان مزعجا . لقد أنبأتنى بخطر عاجل ، فقد أبصرت نسرا عظيما هوى من السماء ثم حملنى فى الفضاء عاليـا . وظل يصعد بى موغلا فى السماء . ثم حدثنى قائلا : « ألق ببصرك الآن الى أسفل ، كيف ترى الأرض وكيف ترى البحر ؟ » . فلما نظرت وجـدت البحـر كالقصعة والأرض كقطعة العجين . حينئذ تركنى أسقط من بين مخالبه . فهويت من عل الى الأرض محطما .

جلجامش : الويل لنا ان كانت الآلهة قد أرادت بنا سوءا .

ثم تملكت أنجيدو الحمى ، ورقـد طريـح الفراش ثلاثـة أيـام وفى اليوم الرابع فتح فمه وتحدث الى صديقه جلجامش وقال : « صديقى لقد أرادتنى الهةالحياة الى نفسه . انه يريد أن يصيبنى بسهمه وأنا لم أصل الى منتصف المعركة بعد » .

ولم يصدق جلجامش ما قاله أنجيدو . لقد كان قلب الصديق ما زال يخفق فى خفوت .

اللوح الثامن

ورقد جلجامش بجانب انجيدو يحدثه لعله يبعث فيه الحيـاة « انجيدو .. صديقى ! أين قوتك وأين صوتك ؟ لقد كنت أقـوى من الأسد وأسرع من الغزال . لقد أحببتك كأخ لى ، فغامرنا معا .. ثم قضينا على الشر معا . . هل تظل نائمـا ؟ » . وكان انجيدو قد لفظ أنفاسه

الأخيرة • ووضع جلجامش يديه على قلب صديقه فلم يحس خفقانه ، فصرخ : « صديقى انجيدو ألم تعد تسمعنى • • ألم تعد ترانى ؟ بل ألم تعد ترى الضوء ؟ » . وظل جلجامش راقـــدا بجانب صـــديقه يبكيه بعويل مزعج ستة أيام وست ليال ، ثم حفر له فى اليوم السابع ودفنه • ثم خرج هائما على وجهه فى البرارى • فقابله صياد قد أزعجه منظر الملك جلجامش فقال له : « ما الذى جعل وجهك هكذا شاحبا مزيلا ، بل ما الذى أظلم روحك وأحنى جسدك ؟ لماذا يمتلىء قلبك بشـــكوى مريرة تريد أن تحكها فى أسى ، لماذا تتجول هكذا مضطربا فى المراعى ؟» •

وفتح جلجامش فمه ليحكى ألم نفسه : « صديقى انجيدو الذى ارتبط بى كعضو من جسدى • • صديقى الذى تجولت معـــه ، قد وصل الى المصير الانسانى • لقد بكيته ستة أيام وست ليال وهو راقـــد أمامى بعد أن خمدت أنفاسه ، ثم حفرت له فى اليوم السابع ودفنتـــه • ان موته جعلنى أحس بثقل الحياة ، ولذلك فقد أسرعت الى المراعى باحثا وراء اللانهائى ؛ كيف يمكننى أن أسكت ، بل كيف يمكننى أن أصرخ بعد أن صار صديقى ترابا ؟ وهل سألقى يوما مثل هـــذا المصير ؛ ثم أظل راقـــدا الى الابد ؟ » •

اللوح التاسع

جلجامش : لقد تفتت كبدى من الحـــزن على أنجيدو ، ولكننى سأستمر فى السير المراعى والجبال حتى أصـــل الى أوتنابيشتيم ، الانسان الذى استطاع أن يصل الى الحياة الخالدة . فأسأله كيف وصل اليها ، فقد أصبحت الآن أخشى الموت » •

وكان التعب قـــد أنهكه ، فاستلقى فى المراعى مستقبلا أحلامه • وفى الشفق فتح عينيه فاذا به أمام جبلين شاهقين ترتكز عليهما السماء • ومن بعيد شاهد جلجامش العالم السفلى تحرسه اشكال انسانية فى هيئة ثعابين • وتكلم أحدها الى جلجامش وقال له : « انك تسير فى طريق طويل أيها المتجول الغريب • انك تصعد جبالا من الصعب تسلقها • أيمكننى أن أعرف الهدف من وراء مغامراتك ؟ » •

جلجامش : اننى حزين على صديقى انجيدو • لقد وصلَ الى نهاية حظ البشرية •• الى التراب • ولذلك فقد خرجت هائما على وجهى باحثا عن « أوتنابيشتيم » ، علنى أجـد عنده جوابا شافيـا عن الحياة والموت •

حارس العالم السفلى : لم يسبق لآدمى أن اخترق هذه الجبال يا جلجامش • ولكنك اذا اردت أن تصل الى « أوتنابيشتيم » فـلا بد لك من اختراقها ، فخلفها تقع البحار ، وعند منبع هذه البحار يسكن « أوتنابيشتيم » • والطريق الذى يقودك الى البحار عبر الجبـال طويل وشاق ، ظلامه حالك ، ولا أثر فيه لشعاع من الشمس يهديك السبيل • ولو انك تمكنت من الوصول الى نهاية هذا الطريق حتى بحار الظلمات، فانك لن تجد وسيلة تجتاز بها هذه البحار حتى تصل اليه •

جلجامش : طريق مليء بالالام • هل قدر لى أن أقضى أيامى فى نواح وشكوى ؟ ولكننى سأسير • أيمكنك أن تسمح لى بأن أخترق طريقى وسط الجبال حتى أصل الى « أوتنابيشتيم » فأساله عن الحياة التى وجدها ؟ أتوسل اليك أن تتركنى أسير لعلنى أفوز بهـذه الحيـاة كذلك •

حارس العالم السفلى : انك جرىء يا جلجامش وقوتك جبارة • فاشتق طريقك وسط الجبال كما تشاء ، وحينما تصل الى نهايته ستجد باب الشمس مفتوحا أمامك •

وسار جلجامش وسط الجبال • وكان كلما خطا خطوة وقف حائرا• لو كان هناك شعاع من النور لاستطاع أن يرى شيئا ، ولكن الحلكة دامسة والظلام متراكم • ثم مرت ساعات وساعات حتى ظهر له شعاع من الشمس استطاع أن يرى فى ضوئه البحار وبجانبهـا حديقة الاله شمس • حينئذ رفع جلجامش يده الى الاله شمس وخر ساجدا يرفع اليه مطلبه :

جلجامش : ان تجوالى طويل وشاق • كم قابلت وحوشا أوردتها مورد الهلاك حتى أكتسى بجلدها وأتغذى بلحمها • ثم شققت طريقى

وسط الجبال فى الظلام حتى اهتديت بضوء شعاع الشمس الى البحار التى يسكن خلفها « أوتنابيشتيم » • فهل يمكنك يا انـــه شمس أن تقودنى الى النوتى الذى يسافر بى عبر البحار حتى أستفسر عن الحياة الخالدة التى حصل عليها « أوتنابيشتيم » ؟ » •

شمس : الى أين يا جلجامش ؟ أن الحياة التى تبحث عنهـــا لن تجدها • ولكنك اذا كنت عازما على مقابلة « أوتنابيشتيم » فاذهب الى « سيدورى سابيتو » المرأة الحكيم التى تحرس شجـرة الحيـاة • انها تسكن فى مدخل الحديقة التى تقع أمامك ، وهى التى سترشدك الى طريق « أوتنابيشتيم » •

استمع جلجامش الى كلمات شمس ثم وقف ساكنا رافعا عينيه الى الجنة التى تقع أمامه •

اللـوح العـاشر

ورأت « سابيتو » جلجامش قادما فقالت : « اننى أرى شبحا يريد أن يدخل حديقة الاله • من الذى يلح على ذلك بخطـوات ؟ » •

جلجامش : ما الذى رأيت منى يا سابيتو حتى أغلقت الباب هكذا فى وجهى ؟ أننى سأحطم الباب وأكسر المزلاج اذا لم بتفتحيه •

سابيتو : لماذا تبدو هكذا مغتما وجسدك هزيلا ؟ لماذا يملأ قلبك الالم ؟ جلجامش : كيف لاأبدو هزيلا وكيف لاتملأ الهموم قلبى وأخى انجيدو الذى وهبته الحب كله ، والذى قاسمنى المخاطر وســـار معى فى الطرق الشائكة ــ قـــد وصـــل الى النهـــاية التى يصل اليهـــا البشر ؟ لقد بكيته ستة أيام وست ليـــالى وهو راقـــد بجانبى فاقـــد الأنفاس • كنت أبحث عن الحياة فى جسده ولكننى لم أجدها • وأخيرا حفرت له ودفنته ثم خرجت هائما على وجهى فى البرارى • فكيف يمكننى ان أسكت ، بل كيف يمكننى ان أصرخ ؟ والآن هل لك يا سابيتو ان تهدينى الى طريق « أوتنابيشتيم ؟ » •

سابيتو : الى أين تسير يا جلجامش ؟ ان الحياة التى تبحث عنها ،

لن تجدها • فحينما خلقت الآلهة البشر ، قررت أن يكون الموت من نصيب الانسان ، وأما الخلود فقد احتفظت به لنفسها • اننى انصحك يا جلجامش أن تأكل وتشرب ، وأن تستمتع بالحياة ليلا ونهارا • ارجع بلدك ورقا واستعد بهجتك الملوكية ، واصنع لنفسك كل يوم عيدا •

جلجامش : كفى يا سابيتو ! هل يمكنك بعد ذلك أن تطلعينى على الطريق الى « أوتنابيشتيم ؟ » •

سابيتو : ليس لهذا البحر مرفأ لسفينة يمكن أن تحملك الى مكان تهبط فيه•ولكن هناك عند هذه الاحجار يعيش «اورشانابى» الذى يعمل نوتيا بسفينة « أوتنابيشتيم » • ألا تراه ؟ انه الآن قد ذهب ليقطف فاكهة يأكلها • اذهب واسأله ، فاما أن يحقق مطلبك راضيا واما ان يردك خائبا الى هذا المكان » •

وذهب جلجامش الى شاطىء البحر • فرأى المركب ولم ير النوتى • فنادى بأعلى صوته ، ولكن أحدا لم يرد نداءه • فدفعه الغضب الى أن يحطم الحجارة الملقاة بجانب السفينة • وفجأة ظهر له « أورشانابى » وسأله عن اسمه وعن مطلبه ، فحكى له جلجامش ما عن له ، فأجابه النوتى : « ولكنك حطمت بيديك طريق الرحلة التى تبغى القيام بها • ان الحجارة التى حطمتها هى وسيلتنا للوصول الى المركب والخروج منه ، اذ أن كل من يمس مياه البحر يهلك لا محالة • وليس أمامك الآن يا جلجامش سوى أن تحضر الى مائة وعشرين جذر شجرة نستخدمها لهذا الغرض •

وفعل جلجامش ذلك ثم صعد الاثنان فى المركب • وبعد رحلة طويلة فى بلاد الظلمات وصلا الى منبع البحار • ولمح أوتنابيشتيم السفينة قادمة على بعد ، فأخذ يحدث نفسه :

أوتنابيشتيم : من ذا الذى يركب السفينة مع النوتى ؟ أهو انسان أم اله ؟

(ثم أسرع من فوره ليستقبل الضيفة) •

أوتنابيشتيم : ما اسمك ؟ حدثنى عن نفسك ، أما أنا فأتنابيشتيم الذى عثر على الخلود •

جلجامش : اننى جلجامش الملك ، وقد أتيتك من مكان بعيد للتحدث معك فيما يزعج خاطرى • لقد عذبنى موت صديقى انجيدو ، ولذلك فقد جئت اليك لعلك تشفى غلالة صدرى فترشدنى الى الوسيلة التى حصلت بها على الخلود ، لعلى بعد ذلك أستطيع أن أرد الحياة لصديقى وأن أحتفظ بها لنفسى •

أوتنابيشتيم : أترك شكواك وغضبك جانبا يا جلجامش • ان الفرق كبير بين الانسان والاله • الموت للانسان والدوام للاله • واذا كان ثلثاك الها وثلثاك انسانا ، فان هذا لن يغير شيئا من الحقيقة وهى أنك انسان • ما ان يستقبل المولود ضوء الحياة حتى تجتمع «أنوناكى» الروح الأكبر مع « ماميتوم » الاله الخالق للمصاير ثم يدبرا معا أمر هذا المولود • فيقررا معا ولادته ووفاته • أما يوم ولادته فيعلنون عنه، وأما يوم وفاته فيحتفظون بـه !

اللوح الحادى عشر

جلجامش : اننى أراك الآن يا أوتنابيشتيم وجها لوجه • انك لست أطول ولا أضخم منى • انك تشبهنى تماما كما يشبه الابن أباه، ثم انك مثلى انسان تماما كما خلقت • فلماذا وجدت حياتى كلها كفاحا ووجدت أنت حياتك كلها دعة ؟ أخبرنى كيف استطعت الوصول الى مجمع الآلهة وكيف بحثت عن الحياة الأبدية حتى وجدتها •

أوتنابيشتيم : اننى سأفتح لك يا جلجامش سرا مدفونا وأطلعك على سر الآلهة • انك تعرف لا شك « شورياك » المدينة الفراتية التى كانت الآلهة قد أنزلت عليها الرحمة زمنا طويلا • لقد غضب عليها الله الأرض يوما وأراد أن ينزل عليها الطوفان • وبعد أن تدبرت الآلهة أمرها بشأن ذلك ، حدثنى الاله « ايا » اله المياه العميقة قائلا:

أن الطوفان سيغمر البلد يا أوتنابيشتيم وعليك أن تنقذ الحيـاة من الفناء • عليك أن تصنع سفينة كبيرة وان تجمع فى مخازنها الحبوب والطعام ، ثم تطرح بها فى البحر قبل أن يبدأ الطوفان وتسكنها أنـت وأقرباؤك •

حينئذ رددت على الاله « ايا » قائلا : وماذا يمكنى أن أقـول لعشيرتى ؟

فقال : قل لهم ان الاله انليل اله الأرض لم يرض ببقائـك فى أرضهم ، ولذلك لا مفر من أن تهجر هذا البلد الى بلد آخر • وفعلتما أمرنى به الاله « ايـا » وصنعت السفينة •

ثم بدأت العاصفة الهوجـاء تهب ، والمطر الهاطـل يسقط • ورآنى انليـل اله الأرض وأنا أتعلق وأهلى بالسفينة فغضب ونـادى بأعلى صوته : « من هذا الذى هرب من الهلاك ؟ ومنذا الذى ساعده على خلـك ؟ » حينئذ هب الالـه نينيب ــ الالـه المعارض بـين الآلهة ــ ورد عليه قائلا : « ومن يمكن أن يفعل ذلك سـوى الالـه « ايـا » ؟ ان الاله (ايـا) عنده من الحكمة ما تكفيه لان يدرك كـل شىء • وهنا انطلق الاله ايا متحدثا : « أيها الاله انليل ، انك قـد فعلت ذلك دون امعان وتدبر • واذا كنت قـد شئت بفعلك هـذا أن تعاقب المذنب ، فقد كان من الأولى أن يتحمل كل مذنب وزر ذنبـه • ومع كل هذا فأنا لـم أخن عهد الآلهـة باحتفاظى بأونابيشتيم فى السفينة • لقد شئت أن أحتفظ بالحياة على الأرض ، فهل يمكنك بعد ذلك أن تكون بأوتنابيشتيم رحيما ؟ » حينذاك أمسك انليل ــ الـه الأرض ــ بيدى ويـد زوجتى وأدخلنا معه السفينة ثم قال : « لقد كنت يا أوتنابيشتيم حتى هذه اللحظة انسانا فانيا ، أما الآن فانك ستحيا وزوجتك الى الأبد تماما كما نحيا • هذه هى قصة خلودى يا جلجامش، فهل فى وسعك أن تبحث عن اله بين الآلهة يبلغك مقصدك ؟ على أننى يمكننى أن أساعدك على الوصول الى غرضك اذا قمت بتجربة لا يقدر على تنفيذها الانسان الفانى ، وهى أن تظل ستة أيام وست ليـالى يقظـا لاتـذوق طعم النوم • فاذا نجحت فانـك ستكتسب الخلـود

واذا فشلت فسوف تقتلك السفينة مرة أخرى الى ورقـا » • واستمع جلجامش لحديثه ، وجلس مستعدا لتنفيذ رغبة أوتنابيشتيم ، ولكنه سرعان ما غلبه النـــوم • ثـم غـرق فى نومه طويـلا حتى أيقظه أوتنابيشتيم وقال له : « لقد نمت طويلا يا جلجامش حتى أيقظتك ! »

جلجامش : وماذا يمكننى أن أفعل ؟ اننى لم أشعر الا والنوم قد غلبنى •

أوتنابيشتيم (للنوتى) : اننى آمرك الآن ألا تأتينى بانسان يسعى لمعرفة قصتى • والآن خذبيد جلجامش واجعله يستحم ويخلع عنه ملابسه القذرة ، واجعله يرتدى رداء أبيض ناصعا ، وبهذا الرداء يرجع الى ورقا • ولتكن أيامه بعد ذلك ناصعة مثل هـذا الرداء •

وفعل أورشانابى ما أمره بـــه « أوتنابيشتيم » ، واستعدت السفينة لأن ترحل بجلجامش الى ورقا . وعندئذ صاحـــت زوجـة « أوتنابيشتيم » على زوجهـا وقالت له : « لقد أجهد جلجامش نفسه وأذاقها الويل ، فهل يمـــكنك أن تمنحه شيئا حتى يرجع سعيدا الى بلده ؟ » واستمع جلجامش لكلماتها فأوقف المركب عن السير ، ونظر الى أوتنابيشتيم وهو متلهف لسماع كلمة أخرى منه ، ونطق أوتنابيشتيم قائلا : « لقد أجهدت نفسك يا جلجامش وأذقتها الويل • ماذا يمكننى أن أمنحك حتى ترجع سعيدا الى بلدك ؟ اننى سأطلعك على سر آخر •• انه سر الحشائش العجيبة • هذه الحشائش ذات الأشـــواك المدببـــة تنبت بعيدا فى البحر الذى تسير فيه ، أنك ان حصلت عليها وأكلت منها فسوف تخلد » •

بهذه الكلمات انبثق الأمل فى نفس جلجامش ، ثم استأنف السير بالسفينة • وفى منتصف الطريق عثر على الحشائش فاقتطفهـا فى سعادة وقال لأورشنابى : « الآن قد حصلت على الحشائش •• أخيرا تحقق أملى العريض ولم أرجع من الرحلة خائبا • اننى سأحتفظ بها حتى أعود الى ورقـا فاكل منها وأطعمها الأبطال فأخلد ويخلدون » •

وسارت السفينة بالبطلجلجامش حتى قابل أرضافطلب الراحة•

ثم أراد أن يستحم بعد العناء فترك الحشائش على الأرض ونـــزل الى الماء . واستنشقت انفى رائحة الحشائش فخرجت من جحرهـــا واتجهت عن اخرها • وما ان فعلت ذلك حتى خلعت عنها جلدهـــا واستردت شبابها • ورآها جلجامش تبتلع اخر قضمة فارتسم الذهول على وجهه وتساقطت الدمـــوع على وجنتيه . ونظر الى أورشانابى فوجده يحملق الى وجهه فى رعب • واخيرا نطق جلجامش فى يأس : « لمن كان كل ذلك التعب ؟ لقد أجهدت نفسى ثم لم أحصل على شىء . فقد التهمت ديدان الأرض ثمرة رحلتى الشاقة فى لحظات ! » وسارت السفينة ساعات طويلة حتى ظهر على بعد برج معبد ورقـــا • لقـــد وصلا الى ورقا •• الى المدينة ذات السور الضخم الـــــذى بنـــاه جلجامش ••

اللوح الثانى عشر

ولكن جلجامش لم يذق طعم الهدوء • ففى ورقا استدعى الكهنة ليقيموا طقوس السحر ويتلوا التعاويذ • لقد أراد أن يتحدث الى روح أنجيدو ويسأله عن حياته الأخرى • وجاءه الكاهن الأكبر وقال له : « ان شئت التحدث مع روح صديقك فاخلع عنك رداءك الأبيض وارتد رداء قذرا ، ولا تقبل زوجتك ولا تحتضن ابنك . والا غضبت عليك أرواح الموتى ولم تحقق مطلبك » •

وفعل جلجامش ذلك ، وأجرى طقوس السحر . فظهر له حارس العالم السفلى ، وتحدث اليه منذرا : « ارجـــــع ثانية الى مكانك . فليس لك من سبيل لرؤية الموتى • ان أحدا لم يفعل ذلك من قبل » •

ولم ييأس جلجامش البطل ، فرجع وتوسل الى الاله « ايـــا » أن يساعده على تحقيق مطلبه . فنفجرت الأرض فى الحال عن فجوة خرج منهـــا خيال انجيدو • لقد وقف بعيدا عن جلجامش ولم يقترب منه • وفتح جلجامش فمه وقال له :

جلجامش : صديقى انجيدو ، أخبرنى عن قانون الحياة ••

انجيدو : لن أخبرك ياجلجـامش ، لأننى لو فعلت لجلسـت وبكيت •

جلجامش : اننى سأجلس وأبكى •• ولكن أخبرنى !

انجيدو : صديقك يا عزيزى الذى كنت تعانق جسده ، وكان يسعد قلبك بذلك ، قد تهالكت الديدان على جسده ، تماما كمـا تتهالك على ثوب مهلهل ! صديقك يا عزيزى الذى كنت تمسك بيـده فتحس بنشوة السعادة قد تحول الى رماد ، لقد غاص فى وسط التراب ثم أصبح رمادا !

وفتح جلجامش فمه ليتساءل بعد ذلك ، ولكن الظل كان قـد اختفى •

ورجع جلجامش الى ورقا •• الى المدينة ذات السور الضخم الذى كان قـد بناه • وهناك فى قصره أراد أن يرتاح بعد تعب طويل• فاستلقى ثم راح فى نوم عميق •• الى الأبـد !

***

تعد ملحمة جلجامش هذه من أخلد التراث الأدبى العالمى • وهى تحتل مكانا ممتازا فى عالم الأدب بمحتواها وفنيتها • فبينما حكت اداب عصرهـا قصص بطولة الآلهة فى صور مختلفة ، حـكت ملحمة جلجامش لنا قصة بطولة الانسان ، اذ أن جلجامش وأنجيدو يقفـان وسط المعركة • حقيقة أن السماء والعالم السفلى يشتركان مع الأرض فى كونهما مسرحا للحوادث ، وحقيقة أن الآلهة والشياطين تظهر على هذا المسرح ، وحقيقة ان جلجامش يرتفع الى مصاف الآلهة بثلثيه ، وأن أنجيدو يشبه الآلهة فى روعته وقوته ؛ الا أن قصة هـذه الملحمة لا تحسب ضمن أساطير الآلهة التى سبق ذكرها • حقا ان الآلهة تلعب دورا رئيسيا فيها ؛ ولكنهم ليسـوا أبطالها • أمـا بطلا هـذه الملحمة فـكل منهما انسان ، يعيش ويأسى ويموت وان كان يمتلك قـوة غير عادية • هذا فضلا عن أن الحاجـز المكانى يلتصق بهمـا ويقفة حائلا بينهما وبين الآلهة •

فاذا صح أن الملحمة تبتعد عن كل من الأسطورة الطقوسية والكونية . كان لنا بعد ذلك أن نتساءل عما اذا كانت تعتمد على أصل تاريخى • وقد سبق أن ذكرنا أن جلجامش كان ملكا بابليا حكم فى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد . كما قرر العلم ذلك • ولم تخلد ملحمة جلجامش وحدها شخصيته . ولكن اسمه ذكر كذلك فى بعض الأساطير الاغريقية . حيث حكت عن غرابة مولده والنبوءة التى اصطحبت ذلك . مبشرة بمستقبله البطولى • ثم تحققت النبوءة وأصبح جلجامش ملك بابل •

هذا عن الأصل التاريخى لجلجامش . أما عن الأصل التاريخى لسور ورقا فقد ورد فى الآثار السومرية أن السور بناه جلجامش قبل عصر حامو رابى . ١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق • م •

أما بلدة أوروك وهى الآن ورقا . التى تقع عند مجرى الفرات الأدنى بعيدا عن شاطئة . فهى التى ذكرت فى العهد القديم تحت اسم ارك . وكانت فى قديم الزمان تقع على مجرى الفرات الأدنى . ثم تغير مجرى النهر على مر الزمن فتزحزح الى الغرب تاركا البلدة ورقا بعيدا عنه •

كل ذلك يثبت أن ملحمة جلجامش ترتكز على أصل تاريخى • وبعد ذلك نتجه الى دراسة محتوى الملحمة • ويمكننا تقسيمها من حيث تناولها للموضوع الى أربعة أقسام : القسم الأول وهو الذى يحكى قصة صداقة جلجامش وآنجيدو • والقسم الثانى يحكى مغامراتهما . والثالث وهو يحكى مغامرات جلجامش من أجل الوصول الى الحياة الخالدة • ثم القسم الرابع والأخير وتصور فيه الملحمة تحضير جلجامش لأرواح الموتى . ثم نهاية كفاحه •

صداقة جلجامش وانجيدو

ماذا يقصد الشاعر من وراء هذه الصداقة ؟ اذا كان قد أراد بذلك أن يحكى لنا قصة الصداقة المتينة بين بطلين ، فاننا كنا ننتظر منه ألا يجعل الفارق كبيرا بين البطلين حتى يصل الى حد التناقض ؛ ولكننا نجد الأمر على العكس من ذلك•فقد ساق لنا الشاعر قصة صداقة غريبة حقا • فبينما كان جلجامش ملكا يغمره البهاء والزهو ، نجد أنجيدو ابن البرارى قد ألف حياة الحيوان ، فهو يرتع فى مرعاه ، ويتخذ من حقولها مسكنا له • ولم يكن يخطر ببال انجيدو أنه سيترك حياته البسيطة الساذجة يوما ما الى حياة أخرى أكثر تعقيدا ؛ بل لم يكن يشتاق الى صداقة انسان آخر ، بله جلجامش • فلماذا جمع الشاعر اذن بين صداقة البطلين الغريبين ؟ لقد كانت تكمن فى جلجامش قوة عنيفة آسرة لفكره وجسده ؛ فلم يكن يركن الى الراحة ليلا أو نهارا • واذا كانت الآثار التاريخية قد أثبت أن جلجامش كان ملكا فاننا نعقب بعد ذلك بأنه كان مثالا للملوك القدماء ، كملوك الفراعنة مثلا ، الذين أرادوا تسجيل مجدهم عن طريق الآثار الضخمة الخالدة • فكل ما سجله التاريخ عن عظمة أمثال هؤلاء الملوك وعظمة مبانيهم ، انما سجله التاريخ عن زهو وفخار عظيمين ، متغافلا مدى التعب الذى كان يعانيه الشعب من جراء ذلك • أما شاعر ملحمة جلجامش فقد أثبت — حينما أعلن صرخته عالية ضد جلجامش — أنه كان شاعر الشعب • فقد عبر عما تكنه قلوب أفراد شعبه وان لم تنطق به ألسنتهم • لقد اراد جلجامش — حينما تمت صداقته العميقة مع انجيدو — أن يرحل معه للقيام بالمغامرات • وكان لا بد لهما أن يتركا أوروك من أجل هذا الغرض • أما شعب أوروك فقد تنفس الصعداء حينما شاءت الظروف أن ترحل بالملك بعيدا وتريحهم من مطالبه التى لا حد لها •

على أن هذا التفسير اذا كان من شأنه أن يوضح الحاح جلجامش على صداقة انجيدو حتى يكون رفيقا له فى مغامراته ؛ فانه لا يفسر مع ذلك هذه الصداقة الغريبة بين جلجامش الملك وانجيدو الانسان

الحيوانى الذى كان الشعر يغطى جسده • ولكى يمكن تفسير ذلك لابد من الاشارة الى الفكرة الميثولوجيه ــ فكرة الحيوان الانسانى الاتى تركت أثرها فى سلسة أنساب بعض القبائل • لقد كان الانسان القديم يرى الحيوان مثله تماما ، بل ربما كان يراه مسببا لبعض مظاهر الكون التى يقف هو دونها عاجزا • ومن هنا ارتبط الانسان بالحيوان فكانت فكرة الانسان الحيوانى والحيوان الانسان• هذه الفكرة استغلها الشاعر للتعبير عن معنى فلسفى بعيد : أعنى محاولة رفع شأن الانسان الحيوانى الى مرتبة الانسان • ولكى يتم ذلك كان لا بد لانجيدو أن يمر بمراحل ثلاث حتى يصل الى هذه المرتبة •

المرحلة الأولى : هى تلك التى كان يحس نفسه فيها كائنا من الكائنات الحيوانية التى تمرح أمامه فى المراعى •

والمرحلة الثانية : هى تلك التى ظهرت له فيها المرأة فصرفته عن عالم الحيوان ، ثم استطاعت أن توقظ فكره ومعانيه الانسانية حينما دفعته لترك البرارى الى المدينة •

أما المرحلة الثالثة : فكان لا بد للمرأة أن تختفى فيها لكى يبحث انجيدو عن الصديق الانسان ويضطر الى مصادقته • ثم يقوم معه بالمغامرات التى عن طريقها تقوى انسانيته وتتضح له معانى الحياة • ولذلك فان انجيدو حينما اشتاق الى المرأة رجع الى البرارى فلم يجدها ، فاستسلم الى صديقه جلجامش • بل استسلم الى حياة الانسان المعقدة التى تنتظره • هذه الفكرة ، فكرة الوصول الى المعانى الانسانية عن طريق الصداقة، كفيلة بأن تبعد بالملحمة عن المستوى الاسطورى ، بل كفيلة بأن تسمى الملحمة من أجلها « أنشودة الصداقة » •

مغامرات جلجامش وانجيـــدو

أراد الاله شمس أن ينتقم من خومبابا الذى تجاوز حـــد الواجب الذى عهد اليـــه ، فكلف جلجامش القيام بذلك • وسعد جلجامش بأن باب المغامرات قـــد فتح أمامـــه على مصراعيـــه • فقام من فوره واصطحب انجيدو واســـتعد البطلان للرحيل • وبكت الام — أم جلجامش — وكانت صلاتها للآلهة أكبر عزاء لهـــا •

ووقف جلجامش البطل وسط المعركة ، فى حين أظهر انجيدو ظل البطولة فحسب ، وفى هـــذه المغامرات ظهر جلجامش بخصال أربع • وهى ليست خصالا فردية وانمـــا هى خصـــال عامة يتصف بهـــا أبطال الملاحـــم . أعنى جمال الملوك وبهـــاءهم ، ثم الرجولة التـــى أسرت عشتروت الهة الحب ، ثم الجرأة التى دفعته لأن يرد على عشتروت فى عنـــاد واصرار من غير خوف أو تردد لمـــا قـــد يعقب ذلك ، ثـــم أخيرا الذكاء فى التصرف ازاء الحـــوادث المختلفـــة • فقـــد أدرك ببعـــد بصره ماذا يمكن أن تكون العاقبـــة لو أنه أطاع عشتروت • فابتعـــد عنهـــا فى صـــلابة وحزم • فمـــا كان من عشتروت الا أن دبرت له الثور فأرسلت اليـــه ثور السماء ليخرب أوروك •

ولكن جلجامش كان يقظا • فما ان شعر بـــأن الثور يتهـــدده حتى أسرع فى بطولة وقضى عليـــه • وهكذا استطاع الشـــاعر أن يمتـــد بالقصة الأسطورية ، قصة الصراع بين الهـــة الحب والبطـــل الجميل الى فكرة أبعـــد ، أعنى يقظـــة الانسان فى الحيـــاة وكيفية يمكنها أن تقضى على الشر المقـــدر •

مغـامرات جلجامش

من أجـل الوصول الى الحـاة الخالدة

لم يكن جلجامش يفكر فى أمر الموت والحياة الآخرة قبل أن يرحل عـه صديقه أنجيـدو الى العالم الآخر • فمـا أن رقـد الصـديق أمامه جسدا بلا روح ، وما أن راه قـد أصبح فى لحظـة عاجزا عـن السمع والكلام والحركة ، حتى تملكه الفزع • هل من اليسير هكـذا أن يفترق عن صديقـه ؟ ثم هل يرقـد هو كذلك هكذا رقـدة أبديـة بعد هذا الكفاح المرير وبعد تلك القوة الآسرة ؟ وأبى جلجـامش العنيـد أن يعترف بذلك • فجرى وراء مذهبه فى الكفاح بحثا عـن الخلـود • لقـد علم أن انسانا هو « أوتنابيشتيم » قـد توصل الى الحيـاة الخالدة ، وهو الآن فى زمرة الآلهـة ؛ فلمـاذا لا يسـعى للوصول الى هذا الانسان ويكشف له عن مكنون صـدره لعلـه ينقذه والأبطال المكافحين من الموت ؟ وبدأ جلجامش رحلته ، وسـار طويلا ، ثم رقـد للراحـة فراح فى نوم عميق • ولمـا استيقظ اذا به أمام العـالم السماوى • السـماء من فوقـه تستند على جبلـين ، والعـالم السفلى من ورائها يحرسه الانسان الثعبـان • فاستمع جلجامش الى تحـذير وانذار ، ولكن ذلك لم يزلزل عزيمتـه ، فهو يريد أن يقف وجهـا لوجه أمام ذلك الانسان ويسمع منـه قصته • وأخيرا وصل الى أوتنابيشتيم فقص عليـه قصة وصوله الى الخلود • انهـا قصة ـ اذا كانت قـد حدثت مرة ـ فلن تحدث مرة أخرى • ثم أراد أوتنابيشتيم بعـد ذلك أن يكشف له عن عجـزه الانسانـى الذى يحول بينـه وبين الخلود ، فطلب منـه أن يظل مستيقظا ستة أيام وست ليـالى • وعجز جلجامش عن تنفيذ ذلك ، اذ سرعـان ما غلبـه النوم • ولم يكن هناك مفر بعد ذلك من أن يرجع خائبـا ، فكساه أوتنابيشتيم ثوبا ناصعا وتمنى له أن تكون حيـاته ناصعـة مثل هـذا الثوب • ولم تحرك الأمنية عـواطف جلجامش بعـد أن فشـل فى البحث عن الخـلود • ثم ركب السفينة مع أورشانابـى وتحركت السفينة بهما فى عرض البحر • وهنـا يظن القـارىء أن

الرحلة قد وصلت نهايتها فتهدأ أعصابه ، مشفقا على جلجامش آسيا له • ولكن الشاعر يثير بارقة الأمل فى نفسه مرة أخرى ، فقد عز على زوجة أوتنابشتيم أن يرجع جلجامش هكذا خائبا • فطلبت من زوجها أن يمنحه شيئا يجعله سعيدا فى رحلته • وهنا يوقفه جلجامش سفينته متلهفا لسماع كلمة أخرى منه • ويحكى له أوتنابيشتيم قصة الأعشاب ، ثم تستأنف السفينة السير ويحيا الأمل فى نفس جلجامش • ويعثر فى أثناء سيره على الأعشاب • وهنا يثق جلجامش كل الثقة أنه قد حقق أمله . فيلقى الأعشاب جانبا حتى يرجع بها سعيدا الى أوروك ، وينزل ليستحم فى نشوة من السعادة • وفى لحظة لم تكن فى حسبانه يفقد جلجامش الأعشاب وتنهمر الدموع من عينيه ، ثم يرحل خائبا •

هذه قصة البحث عن الخلود كما تحكيها الملحمة • وربما كان لنا بعد ذلك أن نتساءل عن الطرافة فى تعبير الشاعر عن هذه المعركة الانسانية التى طالما عبرت عنها الأساطير والقصص من قبل • ولكى تتضح الطرافة فى تناول الشاعر لهذه الفكرة الفلسفية ، يمكننا أن نقارن قصة الخلود فى الملحمة بأقرب القصص التى عبرت عن الفكرة ذاتها • ولتكن هذه القصة قصة الاسكندر الأكبر فى بحثه عن الحياة الخالدة • وقد وردت هذه القصة ضمن قصة الاسكندر الكبرى التى نشرها لأول مرة « كارل مولر » معتمدا على ثلاث مخطوطات عثر عليها فى المكتبة الوطنية بباريس سنة ١٨٤٦ م • أما قصة البحث التى نحن بصددها فقد ذكرها الاسكندر فى خطابه لأمه أولومبيا ولأستاذه أرسطو ضمن مغامراته الكثيرة فى بلاد الهند وبلاد العجائب • ومجمل القصة أن الاسكندر وصل الى علمه أن هناك فى بحر الظلمات نبعا ، اذا ما شرب الانسان من مياهه منح الخلود • فأراد — بعد أن أشبعت الحروب رغبته فى الكفاح — أن يصل الى هذا النبع ، فرحل مع طاهيه ومع بعض رجاله الأبطال الى بلاد لا علم له بها • وبعد أن سار الاسكندر طويلا فى بلاد الظلمات اهتدى الى نبع صاف يلمع ماؤه كالبرق • ولما كان هواء هذا المكان منعشا فقد جلس الجمع

عنده ليستريح .. ثم أحس الاسكندر بالجوع فاستدعى طاهيه أندرياس وأمره أن يعد له طعاما . فأخذ الطاهى سمكة مملحة وقام ليغسلها فى مياه النبع . وفجأة انتعشت السمكة ودبت فيها الحياة وانفلتت من الطاهى واتخذت سبيلها الى النبع . وانتاب الطاهى ذهول ولكنه أدرك فى لحظته أن النبع الذى يقف بجانبه هو نبع الخلود الذى يبحث عنه الجمع . فشرب منه وكتم الخبر عن سيده . وبعد أن تناول الاسكندر شيئا مما أعده الطاهى ، استأنف الجميع سيرهم فى المجاهل . وبعد برهة جلسوا للراحة وطلب الاسكندر أن يحكى كل قصة . وجاء دور الطاهى فحكى ـ مدفوعا بغرابة ما حدث له ـ قصة السمكة والنبع . وهنا غضب الاسكندر من طاهيه أشد الغضب بخاصة وأن النبع كان قد بعد عنهم كثيرا وأصبح العثور على طريق يؤدى اليه فى بلاد الظلمات مجالا . وصمم الاسكندر على أن يقتل طاهيه فى ثورة غضبه . ولكن الطاهى الذى اكتسب الخلود لم يؤثر فيه السيف . واغتاظ الاسكندر فأمر بطرحه فى المياه ، ولكنه كان يطفو حيا . وأخيرا فكر الاسكندر فى أن يربط فى عنقه حجرا ثقيلا ثم يقذف به فى أعماق النبع . وفعل ذلك ونزل الطاهى الى قاع البحر حيا . لقد أصبحت فكرة الخلود تزعجه الآن بعد أن أسعدته ، اذ قد قدر له أن يخلد فى قاع البحر مع الحيوانات المائية .

هذه القصة . قصة مغامرات الاسكندر فى سبيل الحصول على نبع الخلود ـ تعددت رواياتها بتعدد الشعوب التى حكت قصة الاسكندر متأثرة قليلا أو كثيرا بالرواية الأصلية لهذه القصة التى كتبها المدعو « كاليستينس » ونشرها « كارل مولر » . وقد نشط بعض الباحثين فى جمع هذه الروايات العديدة ونشرها حتى يسهل مقارنتها بعضها بالبعض الآخر .

والذى يعنينا الآن هو أن نقارن بين القصتين من حيث أن كلتيهما تعبر عن فكرة البحث عن الخلود . . والقصتان كما ترى تتفقان فى خطوطهما العريضة . فالبطل يسعى للحصول على الخلود ، وبعد تجوال طويل يرجع فاشلا ، فى حين يحصل عليه من لا يحلم

به ولا يسعى اليه • ولكنه بعد أن يحصل عليه لا يسعد به • فقد قدر لطاهي الاشكندر أن يعيش فى قاع البحر مع الحيوانات المائية الى الأبد ، كما قدر لأوتنابيشتيم ان يعيش حياته منعزلا عند منبع البحار بعيدا عن حياة الآلهة وبعيدا عن الحياة الانسانيه التى كان يحياها • ومع أن القصتين تتفقان فى خطوطهما العريضة ، فان قصة جلجامش تختلف كثيرا عن قصة الاسكندر فى التعبير عن فكرتها • والفرق واضح بين أن تخطر ببال البطل فكرة البحث عن الخلود فيسعى مغامرا للبحث عنه ؛ وبين أن تزعج البطل حوادث الحياة وتهز عواطفه هزا الى درجة أنه ينسى مجده وبطولته ومملكته فيسعى ــ مدفوعا بهذه الحوادث ــ ليبحث عن الخلود لعله يشفى غلة صدره • وبينما تتخذ قصة جلجامش الأسطورة وسيلة لتحقيق فكرتها ، نجد الأسطورة هى الغاية ذاتها فى قصة الاسكندر • فمشكلة الموت هى بؤرة ملحمة جلجامش ؛ فى حين تختفى هذه المشكلة تماما من قصة الاسكندر • ولذلك فان جو التشاؤم يشيع فى الملحمة ؛ لا فى نهايتها فحسب ، ولكن منذ بدايتها ، فى حين تثير قصة الاسكندر جوا سلبيا فى نفوسنا ، جوا أسطوريا بعيدا عن التشاؤم والتفاؤل معا • لقد ملأ الطموح حياة جلجامش وفكره ، بخاصة بعد مصادقته لانجيدو ، الى درجة أنه كان يعيش فى الحياة المادية فحسب • وفجأة اهتزت حياته بموت صديقه ، فلم يعد يعرف طعم الراحة الفكرية • ثم أعلن ثورته ضد قوانين الطبيعة ؛ وكان فى كل خطوة يخطوها يسمع نغمة تدعوه الى الرجوع عن مطلبه ، اذ لا جدوى وراء البحث عنه ؛ وأن يسعد بحياته ضاحكا ، مستمتعا بلذاتها • نعم أن يضحك وأن يستمتع بالحياة •• ولكنها فلسفة أخرى للحياة تقف جنبا الى جنب مع فلسفة المتسائل عن سر الموت ، وبخاصة حينما تتعسف الحياة فتخطف شابا فى عنفوان شبابه ، وبطلا يرى الطريق أمامه رحبا فسيحا للقيام بمغامرته •

تحضير الأرواح ونهاية جلجمش

وبعد ذلك نمضي للحديث عن الجزء الأخير من الملحمة الذى يتعلق بتحضير أرواح الموتى ونهاية جلجامش .

لقد رجع جلجامش من رحلته خائبا . ولكن ذلك لم يعن بالنسبة اليه أن يستسلم لحكم القضاء على البشر ، وأن يبدأ عمله مرة أخرى وينسى ما أزعجه . وانما أراد جلجامش — ما دام لم ينجح فى الحصول على الحياة الخالدة — أن يعرف شيئا عن هذه الحياة ، حياة ما بعد الموت . وقد شاء أن يعرف ذلك من انجيدو نفسه . وظهرت له روح انجيدو خيالا متحركا ، وسأله جلجامش عن ماهية حياته . ولكن انجيدو رفض أن يخبر صديقه الذى يحبه بحقيقة الأمر ، لأنه لو فعل لأحس جلجامش بالألم المرير وبكى . ولكن جلجامش الذى كان قد ملأ الألم نفسه أصر على أن يعرف نهاية القصة وان تركته يبكى ليلا ونهارا . ثم جاءه سؤاله .. ان الجسد الذى يعانقه ويسعد برؤيته ، وان الحياة التى تنبثق من حديث الانسان ونظراته .. كل ذلك يختفى ويتحول ترابا . حقيقة أن الروح تعيش بعد ذلك ، ولكن الحياة التى تحياها الروح لا قيمة لها .

وعند ذلك انقطع حديث جلجامش مع عالم الموت . وعند ذلك تنتهى الملحمة .. وماذا يمكن للشاعر أن يضيفه بعد ذلك ؟ لا شىء سوى أن يستسلم جلجامش لمصيره .

* * *

ان ملحمة جلجامش تمثل تراجيديا الحياة فى قمتها . انها فى طريقة استغلالها للأساطير المختلفة : أسطورة الانسان الاله ، وأسطورة الانسان الحيوان ، وأسطورة الصراع بين آلهة الخير والبطل الجمجل ، ثم أسطورة الطوفان ، بطريقة شاعرية وفلسفية معا للتعبير عن فكرتها الكبرى ، كفيلة بأن تخلد ، بل أن تقف جنبا الى جنب مع أجمل الآثار الادبية العالمية .